رجال الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

رجال الفكر

الدكتور محمد غياث المكتبي عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

الصَّحَابِيُّ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه

الرَّجلُ الصالحُ

(. . . ـ 505هـ)

الصَّحَابِيُّ الجليلُ «أَبو ذَرٍّ الغَفاريُّ» رضي الله عنه، الرَّجلُ الصَّالحُ، الَّذي مشَى وحدَهُ، وماتَ وحدَهُ، ويُبعثُ يومَ القيامةِ وحدَهُ، تَمييزاً لَهُ بِما حباهُ اللهُ بِهِ مِنْ فَضلٍ وإِكرامٍ عَنْ سائِرِ النَّاسِ، والَّذي لَمْ يَخشَ بِاللهِ لومةَ لائِمٍ، فَجهرَ بِالحقِّ أَينَما كانَ، ودافعَ عنهُ بِلسانِهِ البَتَّارِ أَمامَ الحُكَّامِ والأُمراءِ الَّذينَ حادوا عَنْ سَواءِ السَّبيلِ، وهَضموا حقوقَ الأُمَّةِ، وعَكفوا عَلى بِدعٍ وضَلالاتٍ لَمْ تَكُنْ مِنَ الإِسلامِ في شَيءٍ، وسَنُّوا لأَنفُسِهِمْ أُموراً ما أَنزلَ اللهُ بِها مِنْ سُلطانٍ، وبَعدوا عَنْ جوهرِ الإِسلامِ، وعَنْ مناطِ الخيريَّةِ الَّتي ميَّزَ اللهُ بِها هذِهِ الأُمَّةَ المُحمديَّةَ الرَّاشدةَ عَنْ غيرِها مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ أَو اللاحقةِ.

أَجل، كانَ «أَبو ذَرٍّ» صوتاً يَصدحُ دائِماً بِالحقِّ، ويَدعو إِلى الإِحسانِ والعدلِ والمُساواةِ بينَ العبادِ، ويَحضُّ عَلى التَّمسُّكِ بِمعالمِ الحياةِ الرَّبانيَّةِ الَّتي رَسمها القُرآنُ الكريمُ وأَوضَحَتْها سنَّةُ الرَّسولِ الأَعظمِ ﷺ، وكذَلكَ يَدعو إِلى نَبذِ مظاهرِ التَّرفِ والبَذخِ

والإنفاقِ الجائِرِ، خاصَّةً إذا كانَ الأَمرُ فيهِ تَعدٍّ عَلى حقوقِ الأُمَّةِ، أَو فيهِ إِجحافٌ بِنصيبِ الفُقراءِ والمُحتاجينَ في بيتِ المالِ، أَو في الخزينَةِ العامَّةِ لِلدَّولةِ.

وكَأَنَّ «أَبا ذَرٍّ» رجلٌ خلقَهُ اللهُ لِيتمرَّدَ عَلى الباطلِ أَينَما كان، فَهوَ في جاهليَّتِهِ تمرَّدَ عَلى عبادةِ قَومِهِ، ولَمْ يَسجُدْ لِصنمٍ قَطُّ، وكانَ يُؤمنُ بِإِلهٍ واحدٍ في السَّماءِ خالقِ كُلِّ شيءٍ، ومُدبِّرِ كُلِّ أَمرٍ، وهوَ عندَما أَسلمَ جهرَ مِنْ فورِهِ بِإِسلامِهِ، مُتمرِّداً على الواقعِ الأَليمِ، والوضعِ الَّذي فرضَهُ أَربابُ الكُفرِ القُرشيونَ عَلى الدَّعْوَةِ الإِسلاميَّةِ وهيَ في بِدايَتِها، وأَعلنَ إِيمانَهُ عَلى المَلأِ غيرَ مُكترثٍ لِما سَيلقاهُ مِنهُمْ مِنْ رَفضٍ واستنكارٍ وتَنكيلٍ، وذاقَ حَلاوَةَ الأَذَى والعذابِ في سبيلِ اللهِ حفاظاً عَلى مبادئِهِ، وتَلذُّذاً بِالحقِّ الَّذي آمنَ بِهِ، وانعقَدَ عليهِ قلبُهُ ولِسانُهُ.

ومِنْ ثمَّ، بَعدَ إِسلامِهِ، خرجَ مِنْ مكَّةَ راشِداً مُستنيراً بِدعواتِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ لَهُ، وسَدَّدَ اللهُ خُطاهُ، وبارَكَ لَهُ في مَسعاهُ، ورزقَهُ الحكمةَ وحُسنَ الخِطابِ، فَدعا قومَهُ إِلى اللهِ عَلى بَصيرةٍ، فَلاقَتْ دعوتُهُ بينَ قومِهِ صَدىً واسِعاً، وإِقبالاً عَظيماً، فَوفدَ إِلى النَّبيِّ ﷺ في المدينةِ المُنوَّرةِ ـ بَعدَ الهجرةِ بِعدَّةِ شُهورٍ ـ ومَعهُ سائرُ قَومِهِ وقَبيلتِهِ، شاهرينَ إِسلامَهُمْ، ومُعلنينَ انضمامَهُمْ إِلى قافلةِ النُّورِ والإِيمانِ والتَّوحيدِ، وتَبعَتْهُمْ قبيلَةُ «أَسلمَ» شاهرةً إِسلامَها عَلى يَديهِ أَيضاً، فَهدَى اللهُ بِهِ أُمَّةً بَعدَ أُمَّةٍ.

وهوَ بَعدَ ذَلكَ.. رَجلٌ لا يَنامُ عَلى ضَيمٍ، ولا تلينُ لَهُ قَناةٌ وهوَ يَجهرُ بِالحقِّ،

ولا يَسكتُ عَنْ خَطأٍ أو انحرافٍ يراهُ أَمامَهُ ولو كلَّفَهُ الأَمرُ حياتَهُ، أَو أَدَّى إِلى تَشرُّدِهِ ونفيهِ إِلى الجبالِ والوديانِ البعيدةِ، أَو إِلى فَيافي الصحراءِ الموحشَةِ.

فَمَنْ هوَ الرَّجلُ الصَّالحُ «أَبو ذَرٍّ الغفاريُّ»، وكيفَ أَسلمَ، وما هيَ أهمُّ أَفكارِهِ الإِصلاحيَّةِ الَّتي نادَى بِها ووقفَ عليها حياتَهُ؟

❋ ❋ ❋

هوَ الصَّحَابِيُّ الجليلُ أَبو ذرٍّ جَندبُ بنُ جنادةَ بنُ قيسٍ الغفاريُّ، نسبَةً إِلى قبيلتِهِ «غفارَ».

ولِدَ وعاشَ بينَ قومِهِ في مضاربِ قبيلتِهِ «غفارَ» الَّتي كانَتْ تَقطنُ في إِحدَى البَوادي المُشرفةِ عَلى الطُّرقِ التِّجاريَّةِ المُؤديةِ إِلى أُمِّ القُرَى «مكَّةَ» حفظَها اللهُ، وكانَتْ قبيلةُ «غفارَ» مشهورةً بِالسَّطوِ والسَّلبِ والنَّهبِ وقطعِ الطَّريقِ، وكانَ هذا ديدنَها ومعاشَها.

وكثيراً ما كانَ «أَبو ذَرٍّ» يَنتقدُ تَصرُّفاتِ قومِهِ وعملَهُمْ، ويَدعوهُمْ إِلى التَّكسُّبِ المَشروعِ، ومُزاولَةِ الأَعمالِ والمهنِ الشَّريفةِ بدلاً مِنْ قَطعِ الطَّريقِ عَلى المُسافرينَ الآمنينَ، فكانَ قومُهُ لا يَلتفتونَ إِليهِ، ولا يُلقونَ بالاً لِما يَقولُ، ومعَ ذَلكَ كانَوا يَعتبرونَهُ مِنْ أَكابرِهِمْ وفُضلائِهِمْ، ويُؤثرونَهُ بِقدرٍ مِنَ الوقارِ والاحترامِ.

وعندما تَناهَى إِلى سَمعِهِ خبرُ بعثَةِ النَّبيِّ الأَكرمِ ﷺ، تَطلَّعَ بِشغفٍ إِلى أَرضِ مبعَثِ النُّورِ، وهامَتْ نَفسُهُ لِلقاءِ النَّبيِّ المَبعوثِ رحمةً للعالمينَ، فَخرجَ مُعلِناً في قومِهِ أَنَّهُ يَقصدُ مكَّةَ لِلقاءِ مُحمَّدٍ ﷺ للاطِّلاعِ على أَمرِ الدِّين الجديدِ الَّذي يَدعو إِليهِ، ولِلوهلَةِ الأُولَى مِنْ

لِقائِهِ الرَّسولَ الأَكرمَ أَشهرَ «أبو ذَرٍّ» إِسلامَهُ، ومَلأَتْ كلماتُ الرَّسولِ الهادياتُ عليهِ أَقطارَ نَفسِهِ، وكانَتْ بَلسماً شافياً لَهُ مِنْ عنائِهِ الطَّويلِ وهوَ يَبحثُ عَنِ الدِّين الحَقِّ، وكانَ ترتيبُهُ في المُسلمينَ الخامسَ أَو السَّادسَ.

ولأَنَّ «أَبا ذَرٍّ» رَجلٌ خُلِقَ لِيتمرَّدَ على الباطلِ أَينما كانَ، خرجَ مُعلِناً إِسلامَهُ أَمامَ نَوادي قُريشٍ في مكَّةَ، فَتمالأَ عليهِ القَومُ مُجتمعينَ وانهالوا عليهِ ضَرباً وأَذىً، وكادَتْ قُريشٌ أَنْ تُلقي بِتجارَتِها إِلى التَّهلُكَةِ لولا أَنْ تَدارَكَهُمُ «العَبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلبِ» عَمُّ النَّبيِّ ﷺ واسْتنقَذَ الرَّجلُ الغَفاريُّ الضَّيفَ القادمَ إِلى مكَّةَ كما تُستَنقذُ الشَّاةُ مِنْ أَنيابِ الوَحشِ، وقالَ لَهُمْ: «يا معشَرَ قُريشٍ، أَنتُمْ تُجَّارٌ، وطَريقُكُمْ إِلى غفارَ، وهذا الرَّجلُ مِنْ رِجالِها، إِنْ يُحرِّضْ قَومَهُ عليكُمْ، يَقطعوا على قَوافِلِكُمُ الطَّريقَ». فلَمْ يَجدوا بُدّاً مِنْ إِخلاءِ سبيلِهِ.

لَكِنَّ «أَبا ذَرٍّ» بِطبيعتِهِ المُتمرِّدةِ، وبِشَكيمَتِهِ وجسارَتِهِ الَّتي لا تَلينُ أَمامَ الباطلِ، حملَ رِسالَتَهُ في الدَّعْوَةِ والإِصلاحِ مِنْ أَوَّلِ يومٍ مِنْ إِسلامِهِ. فَبينَما كانَ يَمشي في فناءِ الكعبَةِ، شاهدَ امرأتينِ مِن العربِ تَطوفانِ بِالصَّنمينِ «أَساف» و«نائِلةَ»، فَدنا مِنهُما وسَفَّهَ أَحلامَهُما، وأَنكرَ عليهِما دَعوتَهُما لِصنمينِ مِنَ الحجارَةِ لا يَسمعانِ ولا يَعيانِ دُعاءَهُما، وذَكَّرهُما بِاللهِ الواحدِ الأَحدِ الَّذي يَدعو إِلى الإِيمانِ بِهِ النَّبيُّ مُحمَّدٌ ﷺ فَتصرخُ المَرأَتانِ، فَيجتمعُ عليهِ القُرشيونَ ويَنهالونَ عليهِ ضَرباً مِنْ جَديدٍ، وما أَنقذَهُ هذِهِ المرَّة مِنْ بينِ أَيديهِمْ سوى فطنَتُهُمْ لِما سَيحلُّ بِتجارَتِهِمْ لو لَقيَ الرَّجلُ حَتفَهُ في حَرَمِهِمْ فَخلُّوا سبيلَهُ، فانطلَقَ «أَبو ذَرٍّ» إِلى قومِهِ مودِّعاً الرَّسولَ الأَكرمَ، ومُتَّخذاً أَمامَهُ عَهداً بِدعوةِ قَومِهِ إِلى الدِّين الجديدِ، ولَسوفَ يَأتيهِ بِهِمْ جميعاً مُؤمنينَ قانعينَ بِدعوتِهِ، فَلا يَملكُ الرَّسُولُ الأَكرمُ إِلَّا أَنْ

يُباركَ لهُ إيمانَهُ، ويَقولَ لَهُ قبلَ انطلاقِهِ: «**إِنَّ اللهَ يَهدي مَنْ يَشاءُ**»، ثُمَّ يَسكتُ التَّاريخُ عَنْ «أَبي ذَرٍّ» عدَّةَ سَنواتٍ، ثُمَّ يَذكرُهُ بِقوَّةٍ في دارِ الهجرةِ المَيمونةِ.

❁ ❁ ❁

ها هيَ قبيلَةُ «غفارَ»، خَرجَتْ عَنْ بكرةِ أَبيها، وإِلى جانبِها أُختُها قبيلةُ «أَسلمَ» الَّتي كانَتْ تُنافِسُها وتُشاطرُها النُّفوذَ بِالسَّطوِ على طريقِ التِّجَارَةِ قادمتينِ إِلى المَدينةِ المُنوَّرةِ، ويَتقدَّمُهُما الرَّجلُ الصَّالحُ، والدَّاعيَةُ المُصلحُ المُتمرِّدُ «أَبو ذَرٍّ الغَفاريُّ»، حيثُ هَدَى اللهُ عَلى يَديهِ كِلتا القَبيلتينِ، ولَمْ يَكَد الرَّسُولُ الأَكرمُ يَرَى الجمعَ المُباركَ، حَتَّى تَهلَّلَ وَجهُهُ الشَّريفُ بِالفرحِ وامتلأَتْ نَفسُهُ سروراً وحُبوراً، وباركَ مِنْ أَعماقِ قَلبِهِ عملَ «أَبي ذَرٍّ»، ثُمَّ نظرَ إِلى قبيلةِ غفارَ وقالَ: «**غفارُ، غفرَ اللهُ لَها**» ثُمَّ نَظرَ إِلى قبيلةِ أَسلمَ وقالَ: «**أَسلمُ، سالَمها اللهُ**»، ثُمَّ نَظرَ إِلى «أَبي ذَرٍّ» هذا الدَّاعيَةِ الرَّائِعِ، الَّذي وَفَّى بِعهدِهِ وأَتَى بِقومِهِ جَميعاً مُسلمينَ، وقالَ فيهِ رَأيَهُ الَّذي سَتُرَدِّدُهُ الأَجيالُ والقُرونُ حَتَّى يَرثَ اللهُ الأَرضَ ومَنْ عليها: «**ما أَقلَّت الغبراءُ، وما أَظلَّت الخضراءُ أَصدقَ لَهجةً مِنْ أَبي ذَرٍّ**».

فَهذا «أَبو ذَرٍّ» رَجلُ الصِّدقِ، الجسورُ في قَولِ الحقِّ وتَسفيهِ الباطلِ، يُدركُ الرَّسُولُ ﷺ بِبصيرتِهِ الثَّاقبةِ والنَّافذةِ بِالغيبِ ما سَيلقاهُ هذا الرَّجلُ الصَّالحُ مِنْ أَهوالٍ ومتاعبَ وهوَ يَصدحُ بِالحقِّ، ولا سِيَّما عندَما سَيحيدُ حُكَّامُ الأُمَّةِ وأُمراؤُها رويداً رويداً عَنِ الحقِّ، وسَيتَزحزَحونَ قليلاً قليلاً عَن العدلِ والإِنصافِ في تَوزيعِ الثَّروةِ، وسَيميلونَ كُلَّ الميلِ أَو بَعضَهُ إِلى الجورِ والحيفِ، وسَتستَيقظُ بينَ جوانحِهِمْ نوازعُ العصبيَّةِ القبليَّةِ، وسَيؤثرونَها

على صلةِ الإيمانِ، وأُخوَّةِ الدِّين. عندئذٍ سَيقفُ «أَبو ذَرٍّ» جاهراً بِالحقِّ، مُنَدِّداً بِالباطلِ، لا يَخشَى في اللهِ لومةَ لائِمٍ، فَيُوصيهِ الرَّسُولُ ﷺ بِالصَّبرِ والأَناةِ، وبِالتزامِ سبيلِ الحكمةِ والمَوعظةِ الحسنةِ، والبُعدِ عَن المواجهةِ الصَّارخَةِ والمُسلَّحةِ، حفاظاً على حياتِهِ، وعلى وحدَةِ الأُمَّةِ، ولأَنَّهُ سَيكونُ وَحدَهُ، وَحدَهُ فَقطْ.

وهُنا يَسأَلُهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**يا أَبا ذَرٍّ، كيفَ أَنتَ إِذا أَدركتَ أُمراءَ يَستأْثرونَ بالفَيءِ؟**» فَأَجابَ قائِلاً: إِذاً، والَّذي بَعثَكَ بِالحقِّ، لأَضربَنَّ بِسَيفي! فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَفلا أَدلُّكَ عَلى خيرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ اِصبِرْ حَتَّى تَلقاني**».

ويَزدادُ الرَّجلُ الصَّالحُ أَلقاً وإِيماناً بِقربِ حبيبِهِ ونَبيِّهِ، ويُدركُ الرَّسُولُ الأَكرمُ بِعلمِ النُّبوَّةِ أَنَّ هذا الرَّجلَ الصَّالحَ سَيكونُ لَهُ شَأنٌ، وأَيُّ شَأنٍ في التَّاريخِ! وسَيكونُ لَهُ لِقاءٌ مَعَ القدرِ.

فَذات يومٍ يَتخلَّفُ عَنِ الرَّكبِ النَّبويِّ في إِحدَى الغزواتِ لِبطءِ ناقَتِهِ في السَّيرِ، فَيَظنُّ بَعضُ الأَصحابِ الكرامِ، أَنَّ «أَبا ذَرٍّ» تَخلَّفَ أَو تقاعسَ عَن الغزوِ، وفي اليَومِ التَّالِي أَناخَ الرَّكبُ لِيستريحوا مِنْ وَعثاءِ المسيرِ، وبينَما هُمْ كذَلكَ إِذْ لاحَ شَبحُ رجلٍ قادمٍ في الأُفقِ وراءَ السَّرابِ، وعلى الفَورِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**كُنْ أَبا ذَرٍّ**».

ولَمَّا فَصَلتْ بِهِ العيرُ، أَدركَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّهُ حَقّاً «أَبو ذَرٍّ»، فَتبَسَّمَ ابتسامةً حانيَةً وآسيَةً، وقالَ فيهِ كلمَتَهُ المَشهورةَ: «**رحمَ اللهُ أَبا ذَرٍّ، يَمشي وحدَهُ، ويَموتُ وحدَهُ، ويُبعثُ وحدَهُ**»، وما يَبرحُ الرَّسُولُ الأَكرمُ عَنْ إِفرادِ «أَبي ذَرٍّ» بِالوصيَّةِ قُبيلَ موتِهِ.

يَقولُ «أَبو ذَرٍّ» راوياً: «أَوصاني خليلي بِسبعٍ: أَمرني بِحُبِّ المَساكينِ والدُّنوِّ مِنهُمْ، وأَمرني أنْ أَنظرَ إِلى مَنْ هوَ دوني، ولا أَنظرَ إِلى مَنْ هوَ فَوقي، وأمرني أَنْ لا أَسأَلَ أَحداً شَيئاً، وأمَرني أَنْ أَصلَ الرَّحمَ، وأَمرني أنْ أَقولَ الحقَّ وإِنْ كانَ مُرّاً، وأَمرني أَنْ لا أَخافَ في اللهِ لومةَ لائِمٍ، وأمَرني أَنْ أُكثرَ مِنْ قولِ: لا حولَ ولا قوَّةَ إِلَّا بِاللهِ».

وقَدْ مَثَّلتْ هذِهِ المبادئُ والقيمُ جوهرَ الرِّسالةِ الإِصلاحيَّةِ الَّتي حملَها «أَبو ذَرٍّ» على عاتِقِهِ طوالَ حياتِهِ، وصَدقَ أَداؤُهُ لَها بِكُلِّ إِيمانٍ وإِخلاصٍ.

❋ ❋ ❋

بَعدَ وفاةِ النَّبيِّ الأَكرمِ ﷺ، قَضَى «أَبو ذَرٍّ» رِدحاً مِنْ حياتِهِ، وهوَ يَنعمُ بِالأمنِ والهدوءِ والاستقرارِ، لا يَرى ما يَسوءُهُ، أَو يُعكِّرُ لَهُ صَفوَ إِيمانِهِ، في ظلِّ خِلافَةِ الشَّيْخَينِ أَبي بَكرٍ الصِّديقِ، وعُمرَ بنِ الخَطَّابِ، إِذْ كانَتْ خِلافَتُهُما تَقومُ عَلى الزُّهدِ والتَّقَشفِ والعدلِ والمُساواةِ، وهذا ما كانَ يَتمنَّاهُ «أَبو ذَرٍّ» ويَحلمُ بِهِ.

ولَكِنْ عندَما دارَ الزَّمنُ دورَتَهُ، وانقضَت الخلافَةُ إِلى «عُثمانَ بنِ عفَّانَ» وَقَعتْ بَعضُ الأَخطاءِ في إِدارةِ الحُكمِ، وتوزيعِ الثَّروةِ، وتَساهلَ الخليفَةُ في تَعيينِ العُمَّالِ والولاةِ عَلى الأَمصار حسبَ إِشارة ذَوي قرابَتِهِ، واسْتَغَلَّ بَعضُ ذَوي العَصبياتِ مِنْ قَرابَةِ الخليفَةِ مركزَهُ في الحُكمِ في جمعِ الثَّروةِ، واكتنازِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وعمدَ بَعضُهُمْ إِلى الاستئثارِ بِالفَيءِ دونَ عامَّةِ المُسلمينَ طِبقاً لِما حَدَّثَ بِهِ النَّبيُّ الأَكرمُ ﷺ أَبا ذَرٍّ مِنْ قَبلُ.

إِزاءَ هذا سَلَّ «أَبو ذَرٍّ» لِسانَهُ الصَّادقَ البَتَّارَ عَلى الباطلِ وأَهلِهِ، وشَمَّر عَنْ ساعدِ الجَدِّ

يَطوفُ في الأَصقاعِ، مُذَكِّراً ذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ بِما جاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ - والعهدُ بِهِ قريبٌ - مِنْ تعاليمَ تُحرِّمُ اكتنازَ المالِ. وتَنهَى عَنِ الجورِ في توزيعِ الثَّروةِ، وتَدعو إِلى المُساواةِ في العطاءِ بينَ الحاكمِ والمَحكومِ.

وعِندما ضاقَ الخليفَةُ «عُثمانُ» ذَرعاً مِنْ وجودِهِ في المَدينَةِ بَعدَ أَنْ بَلغَهُ انتقادُهُ الشَّديدُ لِطريقَةِ الحُكمِ، وعدمِ المَساواةِ بينَ النَّاسِ في العطاءِ، وإِنكارُهُ اللاذعُ لِلثَّراءِ الفاحشِ الَّذي حَصَّلَهُ الولاةُ وكبارُ موظَّفي الدَّولَةِ، أَمرَهُ بِالخُروجِ إِلى الشَّامِ لِغايَةٍ في نَفسِهِ، ولَكنَّ «أَبا ذَرٍّ» وجدَها فُرصَةً لِتَأديَةِ رِسالَتِهِ الإِصلاحيَّةِ بِصدقٍ وأَمانَةٍ، وخاصَّةً أَنَّ والي الشَّامِ «معاويَةَ بنَ أَبي سفيانَ» قَدْ تَطاولَ في البُنيَانِ واتَّخذَ لِنفسِهِ القُصورَ والضِّياعَ، ويَبذخُ بِالإِنفاقِ مِنْ أَموالِ المُسلمينَ عَلى تَرفِهِ، وعَلى وجوهِ القَومِ لِتأليفِ قُلوبِهِمْ حولَهُ، وتَقويَةِ سُلطانِهِ عَلى حِسابِ حقوقِ المُسلمينَ الَّتي يَهدرُها مِنْ غيرِ مُبالاةٍ.

وفي قَصرِ الخلافَةِ في دمشقَ يُحاجِجُ «أَبو ذَرٍّ» الوالي الباذخَ والمُتبَجِّحَ بِقوَّتِهِ ومَجدِهِ بِالحجَجِ السَّاطعةِ عَلى أنَّ ما يَفعلُهُ يُنافي سُننَ الإِسلامِ، وتَعاليمَ الرَّسولِ الأَعظمِ، فَيقولُ لَهُ ولأَصحابِهِ الَّذينَ خَرجوا إِلى الشَّامِ ولا يَملكونَ في الدُّنيا سِوَى بيوتِهِمُ الَّتي خلفوها وراءَهُمْ في مكَّةَ وصارَ عندَهُم الأَموالُ العظيمةُ والقُصورُ والضِّياعُ: أَفأَنتُم الَّذينَ نزلَ القُرآنُ عَلى الرَّسولِ الكريمِ وهوَ بينكم؟

ثُمَّ يُجيبُ عنهُمْ قائِلاً: نَعَمْ.. أَنتُم الَّذينَ نزلَ فيكُم القرآنُ، وشَهدتُمْ معَ الرَّسولِ المَشاهدَ، أوما تَجدونَ في كتابِ اللهِ هذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا

يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، فَيقطعُ معاويَةُ حديثَهُ ناكراً عليهِ قولَهُ:

لَقَدْ أُنزلَتْ هَذِهِ الآيَةُ في أَهلِ الكتابِ، فَيَردُّ عليهِ أَبو ذَرٍّ بِكُلِّ إِصرارٍ وشَكيمةٍ: لا.. بَلْ نَزلَتْ لنا ولَهُمْ.

❁ ❁ ❁

ويُتابعُ «أَبو ذَرٍّ» أَداءَ رسالَتِهِ الإِصلاحيَّةِ بِالرِّفقِ واللِّينِ عملاً بِنصيحةِ رَسولِهِ ﷺ لَهُ، تَحتَ شعارِ: «بَشِّرِ الكانزينَ بِمكاوٍ مِنْ نارٍ يومَ القِيامةِ» ويَستجيبُ الكثيرُ مِنْ وجهاءِ أَهلِ الشَّام لِدعوتِهِ الإِصلاحيَّةِ، فَيتراخونَ عَنْ غشيانِ مجلسِ معاويَةَ، فَيبرقُ معاويةُ إِلى الخليفَةِ عُثمانَ يَقولُ لَهُ: «إِنَّ أَبا ذَرٍّ قَدْ أَفسدَ النَّاسَ بِالشَّامِ»، فَيكتبُ الخليفَةُ بِدورِهِ إِلى أَبي ذَرٍّ يَستدعيهِ إِلى المدينةِ، ولَمَّا حضرَ إِليهِ جَرَى بَينَهُما حوارٌ طويلٌ، ونِقاشٌ حادٌّ عرضَ خِلالَهُ الخليفَةُ عَلى الرَّجلِ الصَّالحِ المُصلحِ الإِقامةَ إِلى جانبِهِ تَغدو عليهِ اللِّقاحُ وتَروحُ، ولَكنَّ أَبا ذَرٍّ يَأبَى أَنْ يَرتَعَ في النَّعيمِ، وهُناكَ مِنَ المُسلمينَ مَنْ هُمْ جَوعَى، ويَقولُ لِلخليفَةِ بِكُلِّ شُموخٍ وإِباءٍ: «لا حاجَةَ لي في دُنياكُمْ»، فَيأمرُهُ الخليفَةُ بِالخروجِ إِلى أَرضِ الرَّبذةِ النائيَةِ عَنِ المدينةِ، ويُحرِّمُ عَلى النَّاسِ التَّحَدُّثَ إِليهِ، لَكنَّ علياً بنَ أَبي طالبٍ يَخرجُ مودِّعاً صاحبَهُ قُبيلَ انطلاقِهِ إِلى أَرضِ المَنفَى، ويَقولُ في حَقِّهِ كلماتِهِ الرَّائِعةَ، ويَطبعُ عَلى جبينِ الزَّمنِ وسامَ الشَّرفِ والاسْتحقاقِ مِنَ الدَّرجةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّذي نالَهُ أَبو ذَرٍّ عَنْ جدارةٍ واسْتحقاقٍ: «لَمْ يَبقَ اليومَ أَحدٌ لا يُبالي في اللهِ لومةَ لائِمٍ غيرُ أَبي ذَرٍّ».

ويَخرجُ أَبو ذَرٍّ إِلى أَرضِ المَنفَى، لِيُصافحَ التَّاريخَ، ولِيدنو مِنَ الآخرةِ وهوَ سَعيدُ النَّفسِ، مُغتبطُ القَلبِ، غيرُ ساخطٍ عَلى قَدرٍ، ولا مُتبرمٍ بِقضاءٍ، ولا حاقدٍ أَو ناقمٍ عَلى أَحدٍ.

وفي أَرضِ الرّبذَةِ يَموتُ أَبو ذَرٍّ وحدَهُ، وتتَحقَّقُ فيهِ نبوءَةُ الرَّسولِ ﷺ الأُخرَى، حيثُ يَشهدُ موتَهُ عصابَةٌ مِنَ المُؤمنينَ، كانوا يَمرُّونَ في الطَّريقِ، فَيعثرونَ عليهِ وهوَ يَلفظُ أَنفاسَهُ الأَخيرَةَ، ويُصلِّي عليهِ رفيقُ دربِهِ في الدَّعْوَةِ والإِصلاحِ عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه.

كانَ بِاستطاعَةِ أبي ذَرٍّ أَنْ يَقودَ ثورةً عارمةً في الشَّامِ أَو في المدينةِ حيثُ التَفَّ حولَهُ النَّاسُ يَنتظرونَ مِنهُ إشارةً أَو أَمراً لِقلبِ الأُمورِ رأساً عَلى عَقبٍ، لَكنَّهُ كانَ يَنهاهُمْ عَنْ ذَلكَ، ويَأبَى الخروجَ عَلى أَخيهِ المُسلمِ شاهراً سيفَهُ، وكانَ يُخبرُهُمْ أَنَّ اختلافَ الرأي لا يُفسدُ ودَّ القلبِ بينَ المُسلمينَ، وكانَ يَحضُّهُمْ ـ عملاً بوصيَّةِ المُصطفَى ﷺ لَهُ ـ على الصَّبرِ والأَناةِ، حَتَّى يُحدثَ اللهُ أَمراً كانَ مَفعولاً، أَو يَلقَوا وجهَ رَبِّهِم الَّذي لا تَخفَى عليهِ خافيَةٌ.

الأَسئلة والمناقشة

1 ـ إِلى ماذا دَعا أَبو ذَرٍّ الغفاريُّ؟

2 ـ على ماذا تَمرَّدَ أَبو ذَرٍّ في الجَاهِلِيَّةِ؟

3 ـ أينَ كانَتْ تَقطنُ قبيلةُ غفارَ، وبِماذا اشتُهرَتْ؟

4 ـ إلى ماذا كانَ يَدعو أَبو ذَرٍّ قومَهُ قبلَ إسلامِهِ؟

5 ـ لِماذا أَخلَتْ قُريشٌ سبيلَ أبي ذَرٍّ؟

6 ـ ماذا قالَ الرَّسُولُ ﷺ لِقبيلةِ غفارَ ولِقبيلةِ أَسلمَ؟

7 ـ بِماذا أَوصَى الرَّسُولُ الكريمُ ﷺ أَبا ذَرٍّ؟

8 ـ ماذا كانَ أبو ذَرٍّ يَقولُ للنَّاسِ الَّذينَ يَلتفُّونَ حولَهُ ويَدعونَهُ للثَّورةِ والانقلابِ عَلى الحُكَّامِ؟

الإِمَامُ الحسن البصريُّ
إمامُ الواعظينَ
(21 ـ 110هـ)

الإِمَامُ الحسنُ البَصريُّ، إمامُ الواعظينَ، وشَيخُ الزَّاهدينَ، وصاحبُ الكلمةِ الطيبَةِ الصادقَةِ، مَنْ كانَ يأسرُ بِحديثِهِ الأَسماعَ، ويَأخذُ بِمجامعِ القُلوبِ والأَلبابَ، ويَضربُ بِلسانٍ قُدَّ مِنْ صِدقٍ عَلى أهلِ الفُجورِ والمُنكراتِ والنِّفاقِ الَّذينَ اسْتشرَى خَطرُهُمْ في المُجتمعِ في عَصرِهِ، عَصرِ المُتناقضاتِ والبَذخِ والتَّرفِ.

وهوَ مِنَ العُلماءِ العاملينَ المُصلحينَ الَّذينَ أَحيا اللهُ بِهِمْ قُلوباً مَيتَةً، بَعدَ أَنْ تَطاولَ عَليها الأَمَدُ وقَسَتْ، فَهيَ كَالحجارةِ أَو أَشدُّ قسوةً.

لَقَدْ مرَّ عَلى أُمَّةِ الإِسلامِ حينٌ مِنَ الدَّهرِ وهيَ راسخةٌ تَحتَ سَيطرةِ منْ يَقولونَ بِأَلسِنَتِهِمْ ما ليسَ في قُلوبِهِمْ، وتَمادَوا في الباطِلِ، وعَكفوا عَلى الشَّهواتِ والملذَّاتِ، وجَنَحوا إِلى باطنِ الإِثمِ، وغَالوا في المُنكراتِ، ونَسَوا الخالقَ العَظيمَ الَّذي مَنَّ عليهِمْ نِعمَهُ ظاهرةً وباطنَةً، وبَعُدَت الشُّقَّةُ بَينَهُمْ وبينَ إِيمانِ السَّلفِ الصَّالحِ، وكانوا إِلى الكُفرِ ـ عَلى ما يَرى بَعضُ نُقَّادِ التَّاريخِ ـ أَقربَ مِنهُ إِلى الإِسلامِ، فانْبرَى الإِمَامُ «الحسنُ البَصريُّ» مِنْ وسَطِ

الدُّعاةِ والعُلماءِ في عَصرِهِ، يَحملُ بينَ يَديهِ مشعلَ الهدايَةِ والإِصلاحِ، يَدعو إِلى اللهِ على بَصيرةٍ، ويرفعُ مِنْ قيمةِ الدِّين والعقيدةِ الصَّحيحَةِ، ويُعارضُ تلكَ الفِئةَ الَّتي لَمْ تَكُنْ تَحملُ مِنَ الإِسلامِ سِوى اسمه، ولَمْ يَكُنْ لَها دأبٌ إِلَّا الحرصُ على الدُّنيا، والتَّنافسُ في الحياةِ، وعبادةُ المالِ، بَعدَ أنْ زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ حُبَّ الشَّهواتِ والقَناطيرِ المُقنطرةِ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ والخيلِ المُسوَّمةِ، وهذا أَعظمُ ما يُمكنُ أَنْ تتعرضَ لَهُ الأُمَّةُ مِنْ خَطرٍ عَلى مُستقبَلِها ومَصيرِها في الحياةِ، هذا الخطرُ الَّذي أَنبأَنا بِهِ النَّبيُّ الأَعظمُ ﷺ قبلَ حدوثِهِ.

فَقَدْ رُويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ خطبَ قبلَ وفاتِهِ خُطبَةً أَنذرَ فيها المُسلمينَ مِنْ هذا الخَطرِ الفادحِ، فَقَالَ: «**ما الفقرُ أَخشَى عليكُمْ. ولَكِنْ أَخشَى عليكُمْ أَنْ تُبسَطَ عليكُم الدُّنيا كَما بُسِطَتْ عَلى الَّذينَ مِنْ قَبلِكُمْ، فَتَنافسوها كما نافَسوها، وتُهلِكُكُمْ كَما أَهلَكَتْهُمْ**»[1].

ومِنْ هذا الفَهمِ لِحديثِ المُصطفَى ﷺ رابطَ الإِمَامُ «الحسنُ البَصريُّ» عَلى ثُغورِ مُجتمعِ الإِسلامِ، وهوَ قائِمٌ بِواجبِ الوَعظِ والإِرشادِ، والدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ بِالكلمةِ الطَّيبَةِ حيناً، وبِكلمةِ الحقِّ الناقدةِ لِلباطلِ أحياناً أُخرَى، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ وهوَ يَحدبُ على الإِصلاحِ، وتعليمِ النَّاسِ الأَخلاقَ الَّتي يجبُ أَنْ يَتَّصفوا بِها، وتَزكيَةِ نفوسِهِمْ، وتَدريبِها على الفضائِلِ الحسنةِ، فَهوَ مِنْ مُحسني الأُمَّةِ، ومِنْ خلفاءِ الصَّحابَةِ ومِنَ التَّابعينَ لَهُمْ بِإِحسانٍ، والأُمَّةُ مَدينةٌ لَهُ بِالفَضلِ إِلى يومِ القِيامةِ.

---

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزهد.

فَمَنْ هوَ إمامُ الواعظينَ «الحسنُ البَصريُّ» رضي الله عنه، وأَينَ عاشَ، وكيفَ كانَتْ حياتُهُ؟

❁ ❁ ❁

بَعدَ وفاةِ الخليفةِ الأُمويِّ العادلِ «عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ» رضي الله عنه، ذَلكَ الخَليفَةُ الَّذي حاولَ رَدَّ الأُمَّةِ إلى الحقِّ، وإلى ما كانَتْ عليهِ في عهدِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ مِنِ اتِّباعٍ لِهدي اللهِ سبحانه وتعالى ورَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، أَخذَت الأَوضاعُ تَتقهقَرُ مِنْ جَديدٍ، وبَدأتْ رياحُ النِّفاقِ والمُزاودةِ عَلى الدِّين تَشرئِبُّ بِعُنُقِها مُخلِّفَةً وراءَها ضعفَ الإِيمانِ في العواطف والقُلوبِ، وجفافَ الوازعِ الدِّينيِّ في الضَّمائرِ والعقولِ، وبَدأَت الولاءاتُ الشَّخصيَّةُ والقَبليَةُ تَطغَى عَلى الولاءِ لِلدِّينِ والعقيدةِ، وحلَّ تَقديسُ الحُكَّامِ والأُمراءِ محلَّ تقديسِ الإِلهِ الخالقِ العظيمِ.

وهُنا تَيَقَّظَ الإِمَامُ «الحسنُ البصريُّ» إلى هذا النِّفاقِ في العملِ والعَقيدةِ الَّذي يَطغَى عَلى الأُمَّةِ، وطَفقَ يَخصفُ على سَوءاتِ المُجتمعِ مِنْ رَقائِقِ وَعظِهِ وإِرشادِهِ ما يُقلِّلُ مِنْ غَلواءِ هذا النِّفاقِ الَّذي اسْتشرَى في شَراييِنِ الحياةِ، وصارَ بِضاعةً مُزجاةً يُتزلَّفُ بِها إلى الحُكَّامِ، ويُتقرَّبُ بِها إلى ذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ.

وكانَ الإِمَامُ البَصريُّ في وَعظِهِ وإِرشادِهِ يُحرِّكُ القُلوبَ والعُقولَ، ويَرفعُ مِنْ هِمَمِ العبادِ نَحوَ التَّقوى في العملِ والإِخلاصِ في العبادةِ، وإِفرادِ اللهِ في التَّقديسِ وتَقديمِ الولاءِ لِلدِّينِ والأُمةِ عَلى كُلِّ ولاءٍ آخَرَ مِنْ دونِ خَشيَةِ الحُكَّامِ وذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ.

وقَدْ ذكرَ «ابن خلكانَ» منْ هذا القبيلِ: أَنَّهُ لَمَّا ولِّيَ عُمرُ بنُ هُبيرةَ الفزاريُّ العراقَ،

وأُضيفَتْ إليهِ خُراسانُ، وذَلكَ في أَيَّامِ الخليفَةِ الأُمويِّ يَزيدَ بنِ عبدِ الملكِ سنة (103) هجريَّةً، اسْتَدعَى الحسَنَ البصريَّ ومُحمَّد بنَ سيرينَ والشَّعبيَّ فَقَالَ لَهُمْ:

إنَّ يَزيدَ خليفَةُ اللهِ اسْتَخلَفَهُ على عبادِهِ، وأَخذَ عليهِم الميثاقَ بِطاعَتِهِ، وأَخذَ عَهدَنا بِالسَّمعِ والطَّاعةِ، وقَدْ ولَّاني ما تَرونَ، فَيكتبُ إليَّ بِالأَمرِ مِنْ أَمرِهِ، فَأُقلِّدُهُ ما تَقلَّدَهُ مِنْ ذَلكَ الأَمرِ، فَما تَرونَ؟

فَقَالَ الشَّعبيُّ وابن سيرينَ كلاماً فيهِ تَقيَّةً، وقالَ ابن هبيرةَ: ما تقولُ يا حسنُ؟

فأَجابَهُ الإِمَامُ البَصريُّ: «يا ابن هبيرَةَ، خَفِ اللهَ في يَزيدَ، ولا تَخَفْ يَزيدَ في اللهِ. إنْ اللهَ يَمنعكَ مِنْ يَزيد، وإنَّ يزيدَ لا يَمنعُكَ مِنَ اللهِ، وأُوشِكُ أنْ يبعثَ إليكَ مَلكاً فَيُزيلُكَ عَنْ سريرِكَ، ويُخرجُكَ مِنْ سِعةِ قَصرِكَ إلى ضيقِ قبرِكَ، ولا يُنجيكَ إلَّا عَملُكَ.

يا ابن هبيرةَ، إنْ تَعصِ اللهَ فَإِنَّما جعلَ اللهُ هذا السُّلْطانَ ناصراً لدينِ اللهِ وعبادِهِ، فلا تَركَبَنَّ دينَ اللهِ وعبادَهُ لِسُلطانِ اللهِ، فَإِنَّهُ لا طاعةَ لِمخلوقٍ في معصيَةِ الخالقِ».

ومِنْ هذا القبيلِ ما رواهُ ابن سَعدٍ في طبقاتِهِ بِإسنادِهِ عَنْ مسلمِ بنِ أَبي الذَّيالِ قالَ: سَأَلَ رجلٌ الحسنَ وهوَ يَسمعُ وأُناسٌ مِنْ أَهلِ الشَّامِ فَقَالَ:

يا أَبا سَعيدٍ، ما تَقولُ في الفتنِ مثل يَزيدَ بنِ المُهلّبِ وابن الأَشعثِ؟

فَقَالَ: لا تَكُنْ معَ هؤلاءِ ولا معَ هؤلاءِ.

فَقَالَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشَّامِ: ولا معَ أَميرِ المُؤمنينَ يا أبا سَعيدٍ؟

فَغضبَ الإِمَامُ الحسنُ البصريُّ، ثُمَّ قالَ بيدِهِ فَخطرَ بِها، ثُمَّ قالَ: ولا معَ أميرِ المُؤمنينَ يا أَبا سعيدٍ. نَعمْ، ولا معَ أميرِ المُؤمنينَ.

❋ ❋ ❋

عاشَ الإمامُ البَصريُّ عُمراً مَديداً، وعاصرَ العُهودَ الإسلاميَّةَ الثَّلاثَةَ (الرَّاشديَّ والأُمويَّ والعَباسيَّ)، ولَقيَ مِنْ كبارِ أعلامِ هَذِهِ العُهودِ كُلَّ احترامٍ وثَناءٍ، وحَفاوةٍ وإكرامٍ. ولا رَيبَ أَنَّ الصَّحابَةَ وأُمّهاتِ المُؤمنينَ مَدحوا علمَهُ ونَوَّهوا إِلى منزلَتِهِ وفَضلِهِ.

فَهذِهِ أُمُّ المُؤمنينَ الصِّديقَةُ عائِشَةُ بنتُ الصِّديقِ ﵄ عِندَما سَمعَتْ حَديثَ الإِمامِ الحسَنِ البَصريِّ قالَتْ: «مَنْ هذا الَّذي يَتكلَّمُ بِكلامِ الصِّديقينَ؟».

وفي العَهدِ الأُمويِّ لَقيَ مِنْ فُضلاءِ خُلفاءِ وأُمراءِ بَني أُميَّةَ كُلَّ مَدحٍ وإِطراءٍ، فَهذا الخَليفَةُ العادلُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يُنزلُهُ منزلاً عَليّاً، ويُسندُ إِليهِ مِنَ أَعمالِ الدَّولةِ ما هوَ أَهلٌ لَها ويَقولُ عَنهُ: «لَقَدْ وَلَّيتُ قَضاءَ البَصرةِ سَيِّدَ التَّابعينَ».

وهذا الأميرُ والقائِدُ الأُمويُّ الكبيرُ «مَسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ» الَّذي عُرِفَ بِإِخلاصِهِ وتَفانيهِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ يَرَى وجودَ الإِمامِ البَصريِّ لِلنَّاسِ هدايَةً وبَركَةً، فَيَقولُ خالدُ بنُ صَفوانَ:

لقيتُ مَسلمةَ بنَ عبد الملك في الحيرة فقال لي:

أخبرني يا خالدُ عن حَسَنِ البَصرةِ، فإِنِّي أظنُّ أَنَّكَ تَعرفُ مِنْ أمرِهِ ما لا يَعرفُ سِواكَ.

فقلت: أصلحَ اللهُ الأميرَ؛ أنا خيرُ مَنْ يُخبِرُك عَنهُ بِعلمٍ، ثم قالَ: أنا جارُهُ في بيتِهِ، وجَليسُهُ في مَجلِسِهِ، وأعْلمُ أهلِ البَصرةِ بِهِ.

قال: هاتِ ما عندَكَ.

قالَ لَهُ: إنَّهُ امرؤٌ سَريرتُهُ كعلانيتِهِ ـ واحِدَةٌ ـ وقولُهُ كفعِلِهِ، إذا أمرَ بِمعروفٍ كانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ، وإذا نَهى عَنْ مُنكرٍ كانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ، ولقَدْ رأيتُهُ مُستغنياً عَنِ النَّاسِ، زاهداً بِما في أيديهِمْ، ورأيتُ النَّاسَ مُحتاجينَ إليهِ، طالبينَ ما عندَهُ.

فَقَالَ مَسلمةُ: حسبُك يا خالد! كيف يضلُّ قومٌ فيهم مثلُ هذا؟!

ونَقلَ أبو حيَّانَ التَّوحيديُّ قولاً لِلعالمِ والفيلسوفِ الكبيرِ «ثابِتِ بنِ قرَّةَ الحرَّاني» يَصفُ فيهِ الإمامَ الحسَنَ البَصريِّ فقال:

«كانَ مِنْ دراري النُّجومِ عِلماً وتَقوى، وزُهداً ووَرعاً، وعفَّةً ورِقَّةً، وفقهاً ومعرفةً، يَجمعُ مجلسُهُ ضروباً مِنَ النَّاسِ، هذا يأخذُ عَنهُ الحديثَ، وهذا يَلقفُ منهُ التَّأويلَ، وهذا يَسمعُ منهُ الحلالَ والحرامَ. هذا يحكي لَهُ الفُتيا، وهذا يَتعلَّمُ الحِكَم والقَضاءَ، وهذا يسمعُ الوَعظَ.

وهوَ في جميعِ ذَلكَ كَالبَحرِ اللّجَّاجِ تَدفُّقاً، وكَالسِّراجِ الوَهَّاجِ تَأَلُّقاً، ولا تَنسَ مواقفَهُ ومَشاهدَهُ بِالأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهيِّ عَنِ المُنكرِ عندَ الأُمراءِ وأَشباهِ الأُمراءِ بِالكلامِ الفَصلِ واللَّفظِ الجزيلِ».

قالَ عَنهُ الإِمَامُ الغزاليُّ في كتابِ «إحياءِ علومِ الدِّين»: «لَقَدْ كانَ الحسنُ البَصريُّ أَشبَهَ النَّاسِ بِكلامِ الأَنبياءِ، وأَقربَهُمْ هدياً مِنَ الصَّحابَةِ، اتَّفَقَت الكلمةُ في حَقِّهِ عَلى ذَلكَ».

❋ ❋ ❋

عاشَ الإِمَامُ الحسَنُ البَصريُّ للهِ، وفي اللهِ، في كُلِّ حركاتِهِ وسَكناتِهِ، وفي كُلِّ خَطوةٍ مِنْ خَطواتِ حياتِهِ، كانَ عازفاً عَن الدُّنيا زاهداً فيها، ضارباً صَفحاً عَنْ مفاتِنِها وشَهواتِها، أليفَ الهَمِّ والحزَنِ، صَديقَ الزُّهدِ والسَّجنِ، كُلُّ هَمِّهِ هِدايَةُ الحَيارَى إلى طريقِ الهُدَى والرَّشادِ، ووَعظُ السُّكَارَى مِنَ الأَباطرةِ والأُمراءِ والولاةِ الَّذينَ أَبطرَهُمْ إِقبالُ الدُّنيا بِجاهِها ومالِها عليهِمْ فَغرَّهُمْ بِاللهِ الغَرورُ، وقامَ بِتأديَةِ رِسالَتِهِ في الدَّعْوَةِ والإِرشادِ والإِصلاحِ خيرَ قيامٍ فَنصحَ الأُمَّةَ، وكَشفَ الغُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِهِ، حَتَّى أَتاهُ مِنْ رَبِّهِ اليَقينُ.

وكانَت الكلمةُ اللَّيِّنَةُ والطَّيِّبَةُ سِلاحَهُ المَضَّاءَ في طريقِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ، ومُقارعَةِ انحرافِ ذَوي الأَهواءِ مِنْ ولاةِ الأَمرِ والأَغنياءِ الَّذين هُمْ مَبعثُ الشَّرِّ في المُجتمعِ إِذا بَطروا.

ولَقَدْ كانَ عَصرُ الإِمامِ البَصريِّ يَعجُّ بِالعُلماءِ والدُّعاةِ والوعَّاظِ، ومَعَ ذَلِكَ كانَ تَأثيرُهُمْ ضَعيفاً عَلى العامَّةِ بِسَببِ بِضاعَتِهِم العلميَّةِ الَّتي كانَتْ تَفتقرُ إلى الخوفِ والمَهابَةِ مِنَ اللهِ، والَّتي كانوا يُحابونَ بِها السَّلاطينَ والأُمراءَ، إِلَّا أَنَّ الإِمَامَ البَصريَّ تَمَيَّز عَنْ هَؤلاءِ بِتفانيهِ في إِخلاصِ العملِ لِلهِ، وبِحرصِهِ الشَّديدِ عَلى الأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنكرِ ولو

كَلَّفَهُ الأَمرُ نَفسَهُ الَّتي بينَ جَنبيهِ، فَكانَ لا يَهابُ مَخلوقاً، ولا يَخشَى سُلطاناً أَو حاكماً وهوَ يَعظُهُ أَو يَنهاهُ عَنْ مُنكرٍ أَشاعَهُ بينَ النَّاسِ.

ومِمَّا يُروَى في هذا الشَّأنِ: أَنَّ والي العراقِ «الحَجَّاجَ بنَ يوسفَ الثَّقفيَّ» المَشهورَ بِجورِهِ وظُلمِهِ وسَفكِهِ لِلدِّماءِ وبِغَدرِهِ بِالعُلماءِ الَّذينَ يَنتقدونَ أَعمالَهُ الهمجيَّةَ والوَحشيَّةَ وتَبَجُّحَهُ بِقوَّتِهِ، وكَذلِكَ بِعدمِ تَضَعضُعِهِ أَمامَ أَحدٍ مِنَ الخَلائقِ مَهما عَظُمَ شأنُهُ، قَدْ ذَلَّ جَبروتُهُ أَمامَ الحَسنِ البَصريِّ، وتواضَعَتْ نَفسُهُ لَهُ مَهابَةً وخوفاً، حَتَّى أَجلسَهُ عَلى سَريرِهِ بَعدَ أَنْ كانَ أَمرَ بِقتلِهِ كَغيرِهِ مِنَ العُلماءِ الَّذينَ حَلَّ عليهِمْ سَخَطُهُ، لأَنَّ الحَجَّاجَ أَدركَ فَحوَى الرِّسالَةِ الإِصلاحيَّةِ الَّتي يَحملُها الإِمَامُ البَصريُّ عَلى عاتِقِهِ، ونَذَرَ لَها نَفسَهُ وحياتَهُ.

رَوَى غيرُ واحدٍ مِنَ المُؤَرِّخِينَ: أَنَّ الحَجَّاجَ بنَ يوسُفَ الثَّقفيَّ بَنَى قَصراً مُنيفاً ودَعا النَّاسَ لِرُؤْيتِهِ، فَاغتَنَمَ الإِمَامُ البَصريُّ الفُرصَةَ لِيَعظَ النَّاسَ ويُذكِّرَهُمْ ويُزَهِّدَهُمْ بِعرضِ الدُّنيا، فَوقفَ فيهِمْ خَطيباً، وقالَ:

لقَدْ نَظرْنا فيما ابتَنَى أَخبثُ الأَخبثينَ، فَوَجدْنا أَنَّ فرعونَ شَيَّدَ أَعظمَ مِمَّا شَيَّدَ وبَنى أَعلَى مِمَّا بَنَى، ثُمَّ أَهلَكَ اللهُ فِرعونَ، وأَتَى عَلى ما بَنَى وشَيَّدَ. ليتَ الحَجَّاجَ يَعلمُ أَنَّ أَهلَ السَّماءِ قَدْ مَقتوهُ، وأَنَّ أَهلَ الأَرضِ قَدْ غَرّوهُ؟!

وفي اليَومِ التَّالِي دخلَ الحَجَّاجُ إِلى مَجلسِهِ وهوَ يَتميَّزُ مِنَ الغَيظِ، وقالَ لِجُلسائِهِ

وجَلاديهِ: تَبّاً لَكُمْ وسُحقاً. يَقومُ عبدٌ مِنْ عبيدِ أَهلِ البَصرةِ ويَقولُ فينا ما شاءَ أَنْ يَقولَ، ثُمَّ لا يَجدُ فيكُمْ مَنْ يَردُّهُ أَو يُنكِرُ عليهِ، واللهِ لأَسقينَّكُمْ مِنْ دَمِهِ يا مَعشرَ الجُبناءِ.

ثُمَّ أَمرَ بِالسَّيفِ والنُّطعِ، وبِإِحضارِ الإِمامِ البَصريِّ، وعندَما حَضرَ الإِمَامُ الحَسنُ البَصريُّ نَظرَ أَمامَهُ فَرأى السَّيفَ والنُّطعَ والجلَّادَ، فَحرَّكَ شَفتيهِ. ثُمَّ أَقبلَ عَلى الحَجَّاجِ وعليهِ جَلالُ المُؤمنِ وعِزَّةُ المُسلمِ، ووقارُ الدَّاعيَةِ إِلى اللهِ، فَلمَّا رآهُ الحَجَّاجُ هابَهُ أَشدَّ الهيبَةِ وقالَ لَهُ:

ها هُنا يا أَبا سَعيدٍ، ها هُنا يا أَبا سَعيدٍ، والنَّاسُ يَنظرونَ في دَهشَةٍ واسْتغرابٍ، حتَّى أَجلسَهُ عَلى سَريرِهِ. وأَخذَ يَسأَلُهُ عَنْ أُمورِ الدِّين، والإِمَامُ الحَسنُ يُجيبُهُ.

فَقَالَ لَهُ الحَجَّاجُ: أَنتَ سَيِّدُ العُلماءِ يا أَبا سَعيدٍ. ثُمَّ دَعا بِطيبٍ وطَيَّبَ لِحيَتَهُ ووَدَّعَهُ.

ولَمَّا خرجَ الإِمَامُ البَصريُّ مِنْ عِندِهِ، تَبِعَهُ حاجبُ الحَجَّاجِ وقالَ لَهُ:

يا أَبا سَعيدٍ، لَقَدْ دعاكَ الحجَّاجُ لِغَيرِ ما فَعلَ بِكَ، وإِنِّي رأَيتُكَ قَدْ حَرَّكتَ شَفتيكَ عندما أَقبلتَ عليهِ، فماذا قُلتَ؟

فَقَالَ الإِمَامُ البَصريُّ: لَقَدْ قُلتُ: (يا وليَّ نِعمتي وملاذي عندَ كربَتي، اجعلْ نَقمَتَهُ برداً وسَلاماً عَليَّ كَما جَعلتَ النَّارَ بَرداً وسَلاماً عَلى إِبراهيمَ).

توفيَ الإِمامُ البَصريُّ سنةَ (110) هجريَّةً، بَعدَ أنْ أمضَى حياتَهُ كُلَّها في الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، والجَهرِ بِالحقِّ أمامَ الطُّغاةِ، وبَعدَ أنْ شَغلَ النَّاسَ بِمواعظِهِ، ويُقالُ: إِنَّ الحياةَ تَعطَّلتْ في مدينةِ البَصرةِ يومَ موتِهِ، وخرجَتْ جموعُ النَّاسِ بعدَ صلاةِ الجُمعةِ في تَشييعِ

جنازَتِهِ، ومِنْ شِدَّةِ ازدحامِ النَّاسِ عندَ قبرِهِ، لَمْ يُتمكَّنْ مِنْ دَفنِهِ إِلَّا قُبيلَ الغروبِ، وتَعطَّلتْ صلاةُ العصرِ في مساجدِ البَصرةِ، ويَذكرُ ابن خلكانَ عَنْ بَعضِ مَنْ شَهدوا جنازتَهُ: «لا أَعلمُ أَنَّ صلاةَ العصرِ تُركَتْ في الإِسلامِ (في جامعِ البصرةِ) إِلَّا يَومئذٍ».

ومِنْ مواعظِهِ الَّتي يَشحذُ بِها همَمَ النُّفوسِ لِاستصلاحِ الفاسدِ مِنَ الأَعمالِ قَولُهُ:

«هيهاتَ هيهاتَ! أَهلكَ النَّاسَ الأَماني: قولٌ بِلا عملٍ، ومعرفَةٌ بِلا صبرٍ، وإِيمانٌ بِلا يَقينٍ، ما لي أرى رِجالاً ولا أَرَى عقولاً! وأَسمعُ حَسيساً ولا أَرَى أَنيساً! دخلَ القَومُ ثُمَّ خرجوا، وعَرَفوا ثُمَّ أَنكروا، وحَرَّموا ثُمَّ اسْتحَلُّوا، إِنَّما دينُ أَحدِكُمْ لَقمةٌ في لِسانِهِ، إِذا سُئِلَ أَمُؤمِنٌ أنتَ بِيومِ الحِسابِ؟ قالَ: نَعَمْ! كَذبَ ومالِكِ يومِ الدِّين، إِنَّ مِنْ أخلاقِ المُؤمنِ قُوَّةً في دينٍ، وإِيماناً في يَقينٍ، وعِلماً في حلمٍ، وحلماً بِعلمٍ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مِنْ أيِّ صنفٍ مِنَ العُلماءِ كانَ الإِمَامُ البَصريُّ؟

2 ـ مَنْ كانَ يُعارضُ الإِمَامَ البَصريَّ مِنْ فئاتِ المُجتمعِ؟

3 ـ ما هوَ الخطرُ الَّذي حذَّرَ مِنهُ النَّبيُّ ﷺ الأُمَّةَ؟

4 ـ كيفَ كانَ تأثيرُ الإِمَامِ البَصريِّ عَلى النَّاسِ؟

5 ـ ماذا قالَ الإِمَامُ البَصريُّ لابن هبيرةَ؟

6 ـ ماذا قالَتْ أُمُّ المُؤمنينَ عائِشَةُ عَنِ الإِمامِ البَصريِّ؟

7 ـ ما هوَ الدُّعاءُ الَّذي قالَهُ الإِمَامُ البَصريُّ لِيَنجوَ مِنْ فَتكِ الحجَّاجِ بِهِ؟

8 ـ ماذا حدثَ يومَ وفاةِ الإِمامِ البَصريِّ؟

عمرُ بنِ عبدِ العزيزِ
فتى بَني أُمَيَّةَ
(61 ـ 101هـ)

قَرنَهُ المُؤَرِّخُونَ بِالخُلفاءِ الرَّاشدينَ لأَنَّهُ أَعادَ لِلخلافَةِ الإِسلاميَّةِ رَونَقَها ورُشدَها، وأَصلحَ مِنْ سِياسةِ الحُكَّامِ والولاةِ والأمراءِ، وجَعلَهُمْ يَحكمونَ بِالعدلِ والإِحسانِ بينَ النَّاسِ، ويَسوسونَ الخَليقَةَ وفقَ مَعاييرِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ.

لَقَدْ جَدَّدَ «عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» ﷺ، طريقَةَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ في إِدارةِ الخِلافَةِ والحكمِ، وكانَ في ذَلكَ أَشبَهَ بِطريقَةِ جَدِّهِ الفاروقِ عمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، فَبعدَ أَنْ عَصفَتْ بِالمُسلمينَ العَواصِفُ، وبَعُدَت الشُّقَّةُ بَينَهُمْ وبينَ خُلفائِهِم وحُكَّامِهِمْ، حيثُ صارَ الخُلفاءُ يَجلسونَ في بُرجِهِم العاجي، بَعيدينَ عَنِ الرَّعيَّةِ، ضاربينَ حولَهُمْ أَسواراً مِنَ الحُرَّاسِ والحُجَّابِ، فَضلاً عَنْ قَصرِ الخِلافَةِ الَّذي يَحرمُ عَلى عامَّةِ النَّاسِ وَطْءُ عَتبَتِهِ، أَو الاقترابُ مِنهُ، سَواءٌ لِحاجَةٍ أَو لِغيرِ حاجَةٍ. وَبعدَ نِهايَةِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ، وبِدايَةِ الخِلافَةِ الأُمويَّةِ، تَبدَّلَ الحالُ غيرَ الحالِ، واستَيْقَظَتِ النَّزَعَاتُ الجَاهِلِيَّةُ الَّتي قَضَى عليها الإِسلامُ، وأَقبلَت العصبيَّاتُ القَبيليَّةُ تُطِلُّ بِرأَسِها مِنْ جَديدٍ، تِلكَ النَّزَعَاتُ والعَصبياتُ الَّتي نَعاها

الرَّسُولُ الأَكرمُ ﷺ في خُطبَتِهِ عِندما خَطبَ في حجَّةِ الوداعِ مُعلِناً انتهاءَ عَصرِ الظَّلامِ والجَاهِلِيَّةِ، وبِدايَةَ عَصرِ النُّورِ والإِيمانِ، بَعدَ أَنْ أَتمَّ اللهُ ﷻ لِهذِهِ الأُمَّةِ دينَها، وأَكملَ لَها رِسالَتَها: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَذهبَ عنكُمْ نزعةَ الجَاهِلِيَّةِ وتَعظُّمَها بِالآباءِ، كُلُّكُمْ مِنْ آدمَ وآدمُ مِنْ تُرابٍ، لا فَخرَ لِعربيٍّ عَلى عَجميٍّ، ولا لِعجميٍّ عَلى عَربيٍّ إِلَّا بِالتَّقوَى**».

فبَعدَ أَنْ كانَ المبدأُ السَّائِدُ في بَيتِ مالِ المُسلمينَ في العَهدِ الرَّاشديِّ هوَ المُتمَثِّلُ بِقولِ الرَّسولِ الأَعظمِ ﷺ: «**تُؤخَذُ مِنْ أَغنيائِهِمْ وتُرَدُّ عَلى فُقرائِهِمْ**»، أَصبَحَ المَبدأُ السَّائِدُ في العَهدِ الأُمويِّ: تُؤخَذُ مِنْ فُقرائِهِمْ وتُرَدُّ عَلى أَغنيائِهِمْ وأُمرائِهِمْ وشُعرائِهِمْ، وبَعدَ أَنْ كانَ مَجلسُ الخليفَةِ يَكتَظُّ بِأُولي العلمِ وذَوي الفَضْلِ، صارَ يَزدَحمُ بِالشُّعراءِ المُحترفينِ المُذبذبينَ، والنُّدماءِ المُتزلفينَ المُتملِّقينَ فَتُنفَقُ عليهِمْ أموالُ الصَّدَقَاتِ بِسَخاءٍ، قيَّضَ اللهُ لِهذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُعيدُ الحقَّ إِلى نِصابِهِ، ويُعيدُ إِلى الأذهانِ والعقولِ ورعَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ، وخوفِهِمْ مِنْ أَنْ يَذلوا وهُمْ يَحكمونَ الخِلافَةَ إِلى مَزالقِ الهَوى والشَّيطانِ.

فَتسلَّمَ الخِلافَةَ فَتى بَني أُميَّةَ «عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» الَّذي كانَ ـ بِحقٍّ ـ مُعجزةً باهرةً في التَّاريخِ خَبَّأها اللهُ لِنصرةِ الإِسلامِ، وكانَ كما تَمَنَّى جَدُّهُ الفاروقُ عُمرُ؛ نَسمَةً مُبارَكةً هَبَّتْ وتَعلَّلَ بِها النَّاسُ في قَيظِ السِّنينِ، فَعمدَ مِنْ أَوَّلِ يومٍ مِن اسْتخلافِهِ إِلى إِصلاحِ ما أَفسَدَهُ الحُكَّامُ والأُمراءُ مِنْ ذاتِ بينِهِمْ معَ الرَّعيَّةِ، وقَضَى عَلى مَظاهرِ الظُّلمِ والجورِ، والأبهةِ والتَّرفِ، وأَعادَ إِلى الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ سيرَتَها الأُولَى، ورَدَّها إِلى وَضعِها الرَّاشدي، وحملَ الأَمانَةَ، وأَدَّى الرِّسالةَ، وجاهدَ بِاللهِ حَقَّ جِهادِهِ حَتَّى أتاهُ اليَقينُ.

فَمَنْ هوَ فَتَى بَني أُميَّةَ، الأَشَجُّ، كما نُبِّىءَ عَنهُ قبلَ مولدِهِ بِسنينَ طويلةٍ؟
هذا ما سَنعرفُهُ في الصَّفَحاتِ التَّالِيةِ.

❁ ❁ ❁

هوَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ بنِ الحكم بنِ أَبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شَمسٍ بنِ عبدِ منافٍ القُرشيِّ الأُمويِّ، سابعُ خُلفاءِ بني أُميَّةَ، وجَدُّهُ الأَعلَى عَبدُ شَمسٍ شَقيقُ جدِّ النَّبيِّ هاشمُ بنِ عبدِ منافٍ، فَالأُسرةُ الهاشميَّةُ والأُمويَّةُ تَلتقيانِ في النَّسبِ في عَبدِ منافٍ.

أَمَّا أُمُّهُ فَهيَ «أُمُّ عاصمٍ بنتُ عاصمِ بنِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ» فيكونُ جدُّهُ الأَعلَى مِنْ جهةِ أُمِّهِ هوَ الفاروقُ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

فقَدْ ذَكرَ المُؤَرِّخُونَ: أنَّ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه نَهَى في خِلافَتِهِ عَنْ مَذقِ اللَّبنِ بِالماءِ، فَخرجَ ذاتَ ليلَةٍ في حواشي المَدينةِ، فَإِذا بِامرأةٍ تَقولُ لابنتِها:

أَلا تَمذُقينَ لَبنَكِ فَقَدْ أَصبَحتِ؟

فَقَالَت الجاريَةُ: كيفَ أَمذُقُ وقَدْ نَهَى أَميرُ المُؤمنينَ عَنِ المَذقِ؟

فقالتْ: قَدْ مذَقَ النَّاسُ، فَامذُقي. فَما يُدري أَميرَ المُؤمنينَ؟

فَقَالَتْ: إِنْ كانَ عُمرُ لا يَعلمُ فَإِلهُ عُمرَ يَعلمُ، ما كُنتُ لأَفعلَهُ وقَدْ نَهَى عَنهُ.

فَوقَعَتْ مقالَتُها مِنْ عُمرَ، فَلمَّا أَصبحَ دعا عاصماً ابنهُ فَقَالَ لهُ:

يا بُنيَّ، اِذهَبْ إِلى موضِعِ كذا وكذا، فَاسأَلْ عَن الجاريَةِ ـ ووصَفَها لَهُ ـ فَذَهبَ عاصمٌ فَإِذا هيَ جاريَةٌ مِنْ بَني هلالٍ، فَقَالَ لَهُ أَبوهُ: اِذهبْ يا بُني فَتزوجْها، فَما أَحراها أَنْ تأتي

بِفارسٍ يَسودُ العربَ (وفي روايَةٍ: لعلَّ اللهَ يَرزُقُكَ مِنها نَسمةً مُباركةً)، فَتزوَّجَها عاصمٌ بنُ عُمَرَ فَولدَتْ لَهُ «أُمَّ عاصمٍ» فَتزوَّجها عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ بنِ الحَكمِ، فَولدَتْ لَهُ عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ.

ولِهذا كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ النَّسمةَ المُباركةَ الَّتي رَزقَ اللهُ بِها عاصمَ بنَ عُمرَ وفقَ بشارةِ الفاروقِ عمرَ بِهِ، ولِهذا أَيضاً كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أَشبَهَ النَّاسِ بِجدِّهِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

ولِدَ عُمرُ في المدينةِ المُنوَّرةِ سنةَ (61) هجريَّةً، وكانَ أَبوهُ والياً عَلى المدينَةِ حينَها، فَنشأَ عُمرُ نَشأَةً عَلميَّةً ودينيَّةً منذُ صغرِهِ، يَتقلَّبُ في مجالسِ كبارِ الصَّحابَةِ، وفي مُقدِّمتِهِمْ خالُهُ عَبدُ اللهِ بنُ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ الَّذي كانَ مُحدِّثَ المَدينةِ وفَقيهَها، ولَمَّا ولي أَبوهُ مِصرَ، بَقيَ عُمرُ في المدينةِ في عِهدةِ خالِهِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ، فَتربَّى عَلى يَديهِ، وأَخذَ مِنهُ الصِّفاتِ والخِلالَ العُمريَّةَ وعَلى رأسِ هذِهِ الصِّفاتِ الورعُ والخشيَةُ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى.

وفي شَبابِهِ تَحوَّلَ عَنِ المَدينةِ إِلى مصرَ، فَأَقامَ معَ أَبيهِ حَتَّى وفاتِهِ، وفي ذَلكَ الحينِ لُقِّبَ عُمرُ بـ «أَشَجَّ بَني أُميَّةَ» لأَنَّهُ وقعَ عَنْ حمارٍ يَركبُهُ فَشُجَّ رأْسُهُ، ثُمَّ تزوَّجَ مِن ابنةِ عَمِّهِ عَبدِ الملكِ بنِ مروانَ، ولِحُسنِ أَخلاقِهِ عَيَّنَهُ عَمُّهُ والياً عَلى المَدينَةِ المُنوَّرةِ فَسارَ بِالنَّاسِ سيرةً حَسنةً، وطافَتْ سيرَتُهُ وأَخبارُ ورعِهِ وعَدلِهِ تَجوبُ في آفاقِ البِلادِ طولاً وعرضاً كَرجلٍ مُحبٍّ لِلعدلِ والمُساواةِ بينَ النَّاسِ.

ومِمَّا يُذكرُ: أَنَّ والي العراقِ «الحجَّاج بنَ يوسُفَ الثَّقفيَّ» رغمَ بَطشِهِ وجَبروتِهِ، كانَ لا يَخشَى مِنَ النَّاسِ أَحداً كَخَشيَتِهِ مِنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ومهابَتِهِ لَهُ.

وعندما ولي سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ الخلافَةَ بَعدَ أَخيهِ الوليدِ سنةَ (99) هجريَّةً لاقَى منهُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ كُلَّ احترامٍ وتَقديرٍ، لأَنَّ سُليمانَ كانَ مُعجباً بِأَخلاقِ ابنِ عَمِّهِ وطَريقَةِ عيشِهِ الَّتي تُشبِهُ إِلى حَدٍّ كبيرٍ طريقَةَ جدِّهِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ الَّتي تَرتكزُ عَلى البِساطةِ والشُّعورِ بِالمَسؤوليَّةِ، والورعِ والخَوفِ مِنْ عَلَّامِ الغُيوبِ.

ولأَنَّ سُليمانَ بنَ عبدِ الملكِ خلفَ أَبناءً كانوا صِغاراً أَوصَى بِالخلافَةِ قبيلَ موتِهِ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بِناءً عَلى مشورةِ العالمِ والفقيهِ «رجاءَ بنِ حَيوَةَ» وإِلى يَزيدَ بنِ عبدِ الملكِ مِنْ بَعدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فَتولَّى عمرُ الخِلافَةَ بَعدَ وفاةِ سُليمانَ مباشرةً، وأُخذَتْ لَهُ البيعةُ في دمشقَ سنةَ (99) هجريَّةً، ومُنذُ اليومِ الأَوَّلِ مِنْ خِلافَتِهِ اتبَّعَ سِياسَةَ جَدِّهِ «عُمرَ بنِ الخَطَّابِ»، وأَخذَ النَّاسَ بِالحقِّ، فاستمرَّتْ خِلافتُهُ نَحوَ سَنتينِ ونصفٍ كانَتْ رَغيدةً عَلى النَّاسِ، وثَقيلةً عَلى بَعضِ أَفرادِ البيتِ الأُمويِّ، لأَنَّهُ جَرَّدَهُمْ مِنِ امتيازاتِهِمْ وأَجبرَهُمْ عَلى إِعادةِ الحقوقِ إِلى أَصحابِها، وقَدِ اتُّهِمَ هؤلاءِ أَنَّهُمْ دَسُّوا لَهُ السُّمَّ، فَتوفيَ في ديرِ سَمعانَ سنةَ (101) هجريَّةً.

وقَدْ حَظيَ العُلماءُ والفُقهاءُ منزلةً عاليَةً في فترةِ حُكمِهِ، وأَجرَى عليهِم الرَّواتبَ والأُجورَ، وقَدْ عدَّهُ بَعضُ المُؤَرِّخِينَ مُتَمِّماً لِعَصرِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ.

❋ ❋ ❋

كانَ «عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» رَجُلاً سليمَ الفِطرةِ، يَميلُ نَحوَ التَّواضُعِ والعفافِ والاعترافِ بِالحَقِّ، ولَو عَلى نَفسِهِ، وكانَ مُحبّاً لِلهِ سبحانه ورَسولِهِ الكريم ﷺ، يَمتازُ بِنزعةِ الخَوفِ والرَّهبةِ مِنْ عَلَّامِ الغُيوبِ، ولِهذا شَرعَ منذُ اليَومِ الأَوَّلِ لِتقلُّدِهِ الخلافَةَ في الإِصلاحِ ورَدِّ التَّاريخِ عَلى أَعقابِهِ، فَرَفضَ كُلَّ مظاهرِ العَظمةِ والأبَّهةِ الَّتي آنَسَها خُلفاءُ بَني أُميَّةَ قبلَهُ، ورَدَّ إِلى بيتِ مالِ المُسلمينَ ما لا حَقَّ لَهُ فيهِ مِنْ مراكبَ وسُرادقاتٍ، ورَدَّ المَظالمَ، وأَبطلَ المَجالِسَ الَّتي أَشبَهَتْ مَجالسَ الأَباطرةِ، حيثُ قَلَّدَ فيها خُلفاءُ بَني أُميَّةَ لأَوَّلِ مرَّةٍ في تاريخِ الإِسلامِ سننَ كِسرَى وقيصرَ، وخالفوا فيها سننَ رَسولِ اللهِ ﷺ وخُلفائِهِ الرَّاشدينَ رضي الله عنهم مِنْ بَعدِهِ، ورَدَّ الجواري اللَّواتي كُنَّ يَملأْنَ حُجراتِ القُصورِ وأَفنيَتَها إِلى بِلادِهِنَّ وأَهليهِنَّ، ونَهَى عَنِ القيامِ لَهُ إِجلالاً وتَعظيماً، وأَباحَ دخولَ النَّاسِ عليهِ مِنْ دونِ إِذنٍ، حَتَّى حُليِّ وجواهرِ زَوجَتِهِ الَّتي أَهداها لَها أَبوها الخليفَةُ عبدُ الملكِ يَومَ عرسِها رَدَّها إِلى بيتِ مالِ المُسلمينَ، وغَمرَتْ حياتُهُ مظاهرَ الزُّهدِ والتَّقَشُّفِ، وبلغَ في طريقَةِ عيشِهِ مَبلَغاً لا يَستَطيعُهُ أَكبرُ الزُّهادِ، إِلَى حَدِّ أَنْ كانَ طعامُهُ هوَ وأَهلُ بيتِهِ دونَ طَعامِ أَفقرِ فُقراءِ المُسلمينَ، فَكانَ أَكثرُ طعامِ بَناتِهِ العدسَ المَغليَّ بِالماءِ والبَصلِ، وإِذا بَناتُهُ سَأَلنَهُ أَنْ يُوسِّعَ عليهِنَّ بِالطَّعامِ والشَّرابِ كانَ يَبكي ويَقولُ لَهُنَّ: يا بَناتي، ما يَنفَعكُنَّ أَنْ تَعَشَّيْنَ الأَلوانَ، ويمرُّ بِأَبيكنَّ إِلى النَّارِ؟!

وفَرضَ لِنَفسِهِ أجراً مِنْ بيتِ مالِ المُسلمينَ درهمينِ كُلَّ يومٍ، عَلى حينِ فَرضَ لُعمَّالِهِ مِنَ الولاةِ والأُمراءِ ثَلاثَمئة دينارٍ لِكُلِّ واحدٍ كَي يُغنيَهُمْ عَنِ الخيانَةِ، ومَشهورٌ عَنهُ رضي الله عنه أَنَّهُ

كانَ يُطفئُ الشَّمعةَ الَّتي زَيتُها مِنْ بيتِ مالِ المُسلمينَ إِذا شَغَلَهُ أَحدٌ بِالسُّؤالِ عَنْ شَخصِهِ كراهيَةً لإنفاقِ مالِ الغيرِ مِنْ غيرِ حاجةٍ.

ولَمْ يَكُنْ زُهدُهُ وورعهُ حالةً خاصَّةً يُطبِّقُها عَلى نَفسِهِ وحسبُ، وإِنَّما كانَ حالةً عامَّةً طبَّقَها على ولاتِهِ وأُمرائِهِ، وعلى سياسةِ الدَّولةِ العامَّةِ في الإنفاقِ، وطَلبَ مِنْ عُمَّالِهِ أَنْ يَلتزموا بِها قَدرَ اسْتطاعَتِهِمْ حفاظاً عَلى حقوقِ وأَموالِ الأُمَّةِ، طلبَ مِنْهُ أَحدُ ولاةِ الأَمصارِ يوماً قَراطيسَ يَكتبُ عليها في مصالحِ وأَعمالِ ولايتِهِ كما اعتادَ أَنْ يَطلبَ مِنَ الخليفةِ قبلَهُ، فَردَّ إِليهِ عُمرُ رِسالةً يَقولُ لَهُ فيها:

«أَمَّا بَعدُ، فَقَدْ قَرأتُ كتابَكَ إِلى سُليمانَ تذكُرُ فيهِ أَنَّهُ قَدْ كانَ يجري على مَنْ كانَ قبلكَ مِنْ أُمراءِ المَدينةِ مِنَ القراطيسِ لِحوائِجِ المُسلمينَ كذا وكذا، فابتليتُ بِجوابِكَ فيهِ، فإِذا جاءَكَ كتابي هذا فَأَرِقَّ القلمَ واجمَع الخطَّ، واجمَع الحوائِجَ الكثيرَةَ في الصَّحيفَةِ الواحدةِ، فَإِنَّهُ لا حاجةَ لِلمُسلمينَ في فَضلِ قَولٍ أَضرَّ بيتَ مالِهِمْ، والسَّلامُ».

وهكذا كانَ عُمرُ دوماً يُقلِّلُ مِنَ اللَّوازمِ والأَشياءِ الَّتي تُقضَى مِنها مصالحُ الولاياتِ حفاظاً على المالِ العامِّ، لِما كانَ يَحسبُهُ في تَدبيرِهِ مُسبَقاً مِنْ هَدرٍ وتَلفٍ لِهذِهِ الأَشياءِ إِذا فاضَتْ عَنْ حاجتِها، وهذِهِ الأُمورُ لا يفطنُ إِليها إِلَّا الحُكَّامُ والمُلوكُ الرَّبانيُّونَ الَّذينَ يَغارونَ عَلى أَموالِ الأُمَّةِ ومصالِحِها، قبلَ أَنْ يُفكِّروا بمِصالِحِهِمْ وتَقويَةِ نفوذِهِمْ.

❋ ❋ ❋

لقَدْ قامَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بِإِصلاحاتٍ عامَّةٍ غَفلَها الخُلفاءُ الأُمويونَ قَبلَهُ، الَّذينَ لَمْ

يَكُنْ لَهُمْ هَمٌّ سِوَى أنْ يَحكموا البِلادَ إدارياً وسِياسياً واقتصادياً، ولو كانَ ذَلكَ عَلى حِسابِ الشَّرْعِ وأَحكامِهِ، فَكانوا يُغلِّبونَ المَصلحةَ الإداريَّةَ عَلى مَصلحةِ الشَّرْعِ، أَمَّا هوَ فكانَ حريصاً عَلى تَقديمِ مصالحِ الشَّرْعِ على المصالحِ الإداريَّةِ لِلدولَةِ.

فَمِنْ ذَلكَ أَنَّهُ عِندما كَثُرَ دُخولُ أَهلِ الذِّمَّةِ في الإسلامِ كانَتْ تَسقُطُ عَنهُم الجزيَةُ الَّتي كانَتْ مِنْ أَهمِّ المَواردِ الماليَّةَ لِلدَّولةِ، فَكتَبَ إليهِ أَحدُ عُمَّالِهِ يُصوِّرُ لَهُ الخَسائِرَ الماليَّةَ الفادحةَ الَّتي لَحقَتْ بِبيتِ المالِ، فَيكتبُ لَهُ الخليفَةُ عُمرُ يَردُّ عليهِ مِنْ غيرِ اكتراثٍ لِذلِكَ قائِلاً: «إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً داعياً إلى الإسلامِ، ولَمْ يَبعَثْهُ جابياً».

وإذا كانَتْ غايَةُ الشَّرْعِ رِعايَةَ مصالحِ النَّاسِ، فَقَدْ طَبَّقَ عمرُ هذا المَبدأَ في سياستِهِ العامَّةِ، ولو أَدَّى ذَلِكَ إلى أَعظمِ الخَسائِرِ الماليَّةِ الَّتي تَقعُ عَلى عاتقِ الدَّولَةِ، فَكتبَ إلى عاملِهِ في اليَمنِ كتاباً يَقولُ فيهِ:

«أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّكَ كتبتَ إليَّ تَذكُرُ أَنَّكَ قَدمتَ اليَمنَ، فَوجدتَ على أَهلِها ضَريبَةً مِنَ الخِراجِ مَضروبَةً، ثابتةً في أَعناقِهِمْ كالجزيَةِ، يؤدُّونَها عَلى كُلِّ حالٍ، إنْ أَخصَبوا أَو أَجدبوا، وحَيَوا أَو ماتوا، فسبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ، ثُمَّ سبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ، ثُمَّ سبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ! إذا أَتاكَ كتابي هذا، فَدَعْ ما تُنكِرُ مِنَ الباطلِ إلى ما تَعرفُهُ مِنَ الحَقِّ، فَاعْمَلْ بِهِ بالغاً بي وبِكَ وإنْ أَحاطَ بِمُهَجِ أَنفُسِنا، وإنْ لَمْ تَرفَعْ إليَّ مِنْ جَميعِ اليَمنِ إلَّا حُفنةً مِنْ كَتمٍ، فَقَدْ عَلمَ اللهُ أَنّي بِها مَسرورٌ إذا كانَتْ موافِقَةً لِلحقِّ.. والسَّلامُ».

وشَجَّعَ عَلى التِّجارَةِ الحُرَّةِ دونَ تَدَخُّلِ الدَّولةِ في فَرضِ الضَّرائِبِ والمُكوسِ، وفتحَ

طريقَ البَرِّ والبَحرِ أَمامَ النَّاسِ وخَلَّى سبيلَ تِجارَتِهِمْ، فَقَالَ لِعُمَّالِهِ: «وأَمَّا البَحرُ فَإِنَّا نَرَى سبيلَهُ سبيلَ البرِّ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الجاثية: 12] فَأُذَنْ أنْ يَتَّجِرَ فيهِ مَنْ شاءَ. وأرى أَنْ لا نَحولَ بينَ أَحدٍ مِنَ النَّاسِ وبينَهُ، فَإِنَّ البرَّ والبَحرَ للهِ جميعاً سَخَّرهُما لِعبادِهِ، يَبتغونَ فيهِما مِنْ فَضلِهِ، فَكيفَ نَحولُ بينَ عبادِ اللهِ وبينَ معائِشِهِمْ؟».

وبلغَ مِنْ شدَّةِ حرصِهِ عَلى مصالحِ النَّاسِ، أنْ فتحَ بابَهُ لِكُلِّ وافدٍ يُخبرُهُ بِما وقعَ عَلى النَّاسِ مِنْ جورِ الولاةِ أَو الأُمراءِ، أَو يُشيرُ عليهِ بِما يَعودُ بِالنَّفعِ عَلى البِلادِ والعبادِ، فَكتبَ إِلى أَهلِ المواسمِ يَقولُ: «أَمّا بَعدُ، فَأَيُّما رَجلٍ قَدمَ إِلينا في رَدِّ مَظلمةٍ، أَو أَمرٍ يُصلحُ اللهُ بِهِ خاصّاً أَو عامّاً مِنْ أَمرِ الدِّين، فَلهُ ما بينَ مئة دينارٍ إِلى ثَلاثمئة دينارٍ، بِقدرِ ما يَرى الحَسبَةُ، وبُعدُ سَفرٍ، لَعلَّ اللهَ يُحيي بِهِ حقاً أَو يُميتُ باطلاً، أَو يَفتحُ بِهِ مِنْ ورائِهِ خيراً».

وفَوقَ كُلِّ ذَلكَ كانَ عُمرُ داعيَةً مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ، وقَلدَّ طريقَةَ الرَّسُولِ ﷺ والخُلفاءِ الرَّاشدينَ في الدَّعْوَةِ إِلى الإِسلامِ، فَقَالَ «البَلاذريُّ» في «فتوحِ البُلدانِ»:

«كتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إِلى ملوكِ الهندِ يَدعوهُمْ إِلى الإِسلامِ والطَّاعةِ، وقَدْ كانَتْ بَلغَتْهُمْ سيرَتُهُ ومَذهبُهُ، فَأَسلموا وتَسَمَّوا بِأَسماء عربيَّةٍ».

ويَذكرُ الأُستاذُ المرحومُ «مُحمَّدُ كرد علي» في كتابِهِ «الإِسلام والحضارة العربيَّة»: أَنَّ عُمرَ لَمَّا اسْتُخلِفَ كتبَ إِلى ملوكِ ما وراءِ النَّهرِ يَدعوهُمْ إِلى الإِسلامِ، فَأَسلمَ بَعضُهُمْ، ورَفعَ الخراجَ عَمَّنْ أَسلمَ بِخراسانَ، وفرضَ لِمَنْ أَسلمَ، وابْتَنَى خاناتٍ.

وإلى عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يَعودُ الفَضلُ بِدخولِ أَهلِ المَغربِ في الإِسلامِ، كما كانَ أَوَّلَ الخُلفاءِ غيرةً عَلى العلمِ الشَّريفِ، فَكتبَ إِلى «ابنِ حزمٍ» كبيرِ مُحدِّثي عَصرِهِ يَقولُ لَهُ: «انظُرْ إِلى ما كانَ مِنْ حديثِ رَسولِ اللهِ ﷺ فَاكتُبْهُ، فَإِنِّي خفتُ درسَ العلمِ وذَهابَ العُلماءِ».

وفَضلاً عَنْ هذا وذاكَ كانَ مِنَ العُلماءِ الرَّاسخينَ والرَّبانيينَ، ويَرى بَعضُ الباحثينَ المُعاصرينَ، أَنَّهُ لولا الخلافَةُ لكانَ مِنَ العُلماءِ المَعدودينَ أو الفُقهاءِ المَشهورينَ في تاريخِنا، وقَدْ مدحَ كثيرٌ مِنَ العُلماءِ والمُؤَرِّخِينَ علمَهُ، حتَّى قالَ فيهِ «الذَّهبيُّ» في «تَذكرةِ الحفَّاظِ»: «كانَ يُقْرَنُ بِالزُّهريِّ في علمِهِ».

وقالَ المُحدِّثُ الكبيرُ «مُجاهدٌ» يَمدحُ علمَ عُمرَ: «أَتيناهُ لِنُعلِّمَهُ فَما بَرِحْنا حتَّى تَعلَّمنا مِنهُ».

الأَسئلة والمناقشة

1 ـ لِماذا قُرِنَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بِالخُلفاءِ الرَّاشدينَ؟

2 ـ كيفَ تَبدَّلَ الحالُ بَعدَ نِهايَةِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ؟

3 ـ كيفَ كانَ المبدأُ السَّائِدُ في بَيتِ مالِ المُسلمينَ في العَهدِ الرَّاشديِّ، وكيفَ صارَ بَعدَهُ؟

4 ـ مَنْ يَكونُ والدُ عمرَ، ومَنْ تكونُ أُمُّهُ؟

5 ـ ماذا قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه لابنهِ عاصمٍ لَمَّا أمرَهُ بِالزَّواجِ مِنَ الجاريَةِ الهلاليَّةِ؟

6 ـ لِماذا كانَتْ خلافَةُ عُمرَ ثَقيلةً عَلى بَعضِ أَفرادِ البيتِ الأُمويِّ؟

7 ـ بِماذا شَرعَ عُمرُ منذُ اليَومِ الأَوَّلِ لِتقلُّدِهِ الخلافَةَ؟

8 ـ عَدِّدْ أَهمَّ الإصلاحاتِ الَّتي قامَ بِها عُمرُ رضي الله عنه.

الإِمَامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل
قاهرُ المعتزلةِ[1]
(164 ـ 241هـ)

الإِمَامُ أَحمدُ بنُ حنبلٍ، قاهرُ المُعتزلةِ، الفَقيهُ الزَّاهدُ الحليمُ، حُجَّةُ أَهلِ زمانِهِ وأَفقهُ النَّاسِ وأَتقاهُمْ في عَصرِهِ، مَنْ بلغَ في زُهدِهِ وورَعِهِ وتَواضُعِهِ أَعلَى درجاتِ السُّموِّ والرِّفعةِ في عيونِ النَّاسِ، ونالَ عِندَهُمْ منزلةً عَظيمةً حَسدَهُ عليها الخُلفاءُ والولاةُ والأُمراءُ، ونخالُ أَنفسَنا ونَحنُ نَقرأُ سيرةَ حياتِهِ، أمامَ رَجلٍ مِنَ الرَّعيلِ الأَوَّلِ مِنَ الصَّحابَةِ الكرامِ الَّذينَ ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: 23]. وحَقّاً كانَ الإِمَامُ «ابنُ حنبلٍ» مِنَ المُنتظرينَ، وما بَدَّلَ في اتِّباعِهِ لِسُنَّةِ الرَّسُولِ الأَكرمِ ﷺ، ودِفاعِهِ عَنها تَبديلاً.

أَذهلَ الإِمَامُ «ابنُ حنبلٍ» العقولَ بِعلمِهِ، وقوَّةِ حفظِهِ لحديثِ النَّبيِّ ﷺ، فَما ظَنُّنا أَو

---

(1) المعتزلة: فرقة من أصحاب الكلام تكلموا في العقائد، و أَوَّلوا آيات القرآن تأويلات باطلة، ولهم آراء تنافي العقيدة الصَّحيحة، منها: أن الله لا يُرى بالأَبصار في الآخرة، وأن العباد يخلقون أفعالهم، كما قالوا بخلق القرآن وأَحدثوا تلك الفتنة الَّتي راح ضحيتها كثيرٌ مِنَ العُلماءِ.

تَقديرُنا لِرجلٍ أَو عالمٍ يَحفظُ مِنْ أَحاديثِ المُصطفَى أَلفَ أَلفِ حديثٍ، فَضلاً عَمَّا يَحفظُ مِنْ قَواعدِ وأَحكامِ علمِ الفقهِ وأُصولِهِ؟! حَقّاً سوفَ يَكونُ حجَّةً عَلى أَهلِ زمانِهِ، بَلْ حجَّةً عَلى المُسلمينَ في مُختلفِ العُصورِ والدُّهورِ اللَّاحقَةِ.

ولَقَدْ تَحقَّقَتْ فيهِ نبوءةُ العالمِ الكبيرِ «الهيثَمِ بنِ جميلٍ» عندَما رآهُ وهوَ لَمْ يَزلْ فَتىً يافعاً، فَخبرَ ذَكاءَهُ ونَجابَتَهُ، وتَفرَّسَ فيهِ الإِمامَةَ في العلمِ، فَقَالَ لِمَنْ حولَهُ مِنْ أَعيانِ العُلماءِ: «إِنْ عاشَ هذا الفَتَى فَسيكونُ حجَّةً عَلى أَهلِ زمانِهِ».

عاشَ «أَحمدُ بنُ حنبلٍ» في عَصرٍ أَحوجُ ما يكونُ إِلى مِثلِهِ مِنَ العُلماءِ، كَيْ يُصلحَ بِهِ اللهُ العقولَ الَّتي غَزَتْها الثَّقافاتُ المُنحرفَةُ الدَّخيلَةُ، وكَيْ يُدافِعَ عَنِ العقيدةِ الصَّحيحةِ أَمامَ المُزاودينَ المُنافقينَ، وحَتَّى يُواجهَ بِشكيمَتِهِ غَطرسَةَ الحُكَّامِ المُتكبرينَ عَلى الحَقِّ، والمَأخوذينَ بِتيارِ الأَفكارِ الهدَّامَةِ، وإِنْ وَصفَهُم البَعضُ بِالعقلانيَّةِ والانفتاحِ، فَمُمارَساتُهُم الجَهلاءُ دَلَّتْ عَلى أَنَّهُمْ كانوا يَحتكرونَ حريَّةَ الرأي والتَّعبيرِ، ويُرهبونَ النَّاسَ لِحملِهِمْ على اتِّباعِ أَفكارِهِمْ بِالقوةِ والعُنفِ.

أَجل، قادَ «أَحمدُ بنُ حنبل» لِوحدِهِ المُعارضَةَ العلميَّةَ والفقهيَّةَ، وحملَ لواءَ الدِّفاعِ عَنْ عَقيدةِ السَّلفِ الصَّالحِ مُتحدِّياً السُّلطةَ الحاكمةَ مُتمثلةً بِشخصِ الخليفَةِ، وتَحمَّلَ العذابَ والسِّجنَ مِنْ أَجلِ إِعادةِ الأُمَّةِ إِلى جادَّةِ الحقِّ والصَّوابِ، بَعدَ أَنْ كادَتْ تَعصفُ بِها فتنَةٌ هَوجاءُ دَبَّرَ أَمرَها المُعتزلةُ بِليلٍ، وفَتنوا بِها الخُلفاءَ والحُكَّامَ، وحَيَّروا بِها عُقولَ العامَّةِ،

فَوقفَ لَهُم الإمامُ أَحمدُ بِالمرصادِ، وجعلَ أَمرَ فِتنَتِهِمْ إِلى بَوارٍ وإِلى زَوالٍ، فَلَمْ تَقُمْ لَهُمْ قائِمةٌ بَعدَها.

ويَرَى النُّقادُ والمُؤَرِّخُونَ ـ قَديماً وحديثاً ـ أَنَّهُ لو لَمْ يُقَيِّض اللهُ لِهذِهِ الأُمَّةِ «أَحمدَ بنَ حَنبَل» لأَحدَثَ المُعتزلَةُ في الإِسلامِ ثُلمةً كانَ لَها مِنْ حياةِ المُسلمينَ ما يَتمَنَّاهُ أَعداؤُهُمْ لَهُمْ، وما يَرجوهُ مُناوئوهُمْ مِنْ عَقيدَتِهِم الَّتي هيَ مَبعثُ قُوَّتِهِمْ، ومَنبعُ عزَّتِهِمْ، وداعي تَمَسُّكِهِمْ بِالفضائِلِ والقيَمِ الخالدةِ.

فَتعالوا معاً، لِنَعشْ لَحظاتٍ فيها المتعَةُ والغِبطةُ، وفيها الإِعجابُ والإِكبارُ، ونَحنُ نُطالعُ بَعضَ جوانبِ حياةِ الإِمامِ «أَحمدَ بنِ حنبل» قاهرِ المُعتزلةِ، وهادمِ صَرحِ مَذهبِ الاعتزالِ وعُلماءِ الكلامِ، ونتعرَّفْ عَلى جهادِهِ الصَّادقِ بِكلمةِ الحقِّ المُبينِ.

❁ ❁ ❁

هوَ الإِمَامُ الفَقيهُ المُحدِّثُ أَبو عبدِ اللهِ أَحمدُ بنُ حنبل بنِ هلالٍ الشَّيبانيُّ الذُّهليُّ، فَأَصلُهُ عربيٌّ صَرفٌ مِنْ جهةِ أبيهِ وأُمِّهِ، مِن بَني ذُهلٍ أحدِ فروعِ قبيلةِ شيبانَ العربيَّةِ المشهورةِ بِعُلمائِها وشُعرائِها وفُرسانِها، وكانَ مِنهُم القائِدُ الإِسلاميُّ الكبيرُ «المُثَنَّى بنُ حارثَةَ الشَّيبانيُّ»، كما كانَ جَدُّ الإِمامِ أحمدَ «هلالٌ الشَّيبانيُّ» والياً عَلى مُقاطعةِ «سرخَسَ» في إِقليمِ خُراسانَ في عَهدِ الأُمويِّينَ، وقد والَى العباسيِّينَ وصارَ مِنْ كبارِ قُوَّادِهِمْ في المَنطقَةِ.

ولدَ الإِمَامُ أَحمدُ في بَغدادَ سنةَ (164) هجريَّةً، فَتعلَّمَ في صغرِهِ القِراءَةَ والكتابةَ،

وحفظَ القُرآنَ الكريمَ عَنْ ظَهرِ قلبٍ، ثُمَّ تَنقَّلَ في كتاتيبِ ودَواوينِ العلمِ في بَغدادَ، مُقبِلاً عَلى العلمِ والحفظِ بِشغفٍ، فَفاقَ أَقرانَهُ مِنْ طلبَةِ العلمِ في بَغدادَ كُلِّها، وصارَ مَضربَ مَثلٍ في اجتهادِهِ ومُثابرتِهِ عَلى طَلبِ العلمِ، ولَمَّا نَضجَ سنُّهُ وعمرُهُ خرجَ يَطلبُ الحديثَ، فلازمَ الفَقيهَ والمُحدِّثَ «أَبا يوسُفَ» صاحبَ أَبي حنيفَةَ، والإِمامَ «أَبا حازمٍ الواسطيَّ» وسَمعَ مِنهُما الحديثَ وأُصولَهُ فَنضجَ في هذا العلمِ وهوَ لَمْ يَزَلْ شاباً يافعاً.

❁ ❁ ❁

كَما يُقالُ: لِكُلِّ عَصرٍ رَجلٌ، وكانَ «قاهرُ المُعتزلةِ» رَجلَ عصرِهِ بِلا منازعٍ أَو مُنافسٍ، فَقَدْ عاشَ مِحنَتَهُ الَّتي فُرِضَتْ عليهِ فَرضاً، وأُقحِمَ فيها إِقحاماً فَما زاغَ عَن الحَقِّ خِلالَها، وما ضَعُفَ أَمامَ جلاديهِ الَّذينَ أَخذَتهُم العزَّةُ بِالإِثمِ، وغَرَّهُمْ بِاللهِ الغَرورُ، وخرجَ مِنْ محنتِهِ ظافراً مُنتصراً، وأَحيا اللهُ بِهِ ما كانَ مَيتاً مِنْ علومِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ.

وكانَ مِنْ خَبرِ هذِهِ المحنَةِ: أَنَّ المُعتزلَةَ نَشطوا في عهدِ الخليفَةِ «المأمونِ» نَشاطاً مَلحوظاً، وصاروا يؤوِّلونَ أَحكامَ الدِّين تَأويلاً خاطِئاً، يَتَّفقُ مَعَ آرائِهِم الفَلسفيَّةِ المُثيرَةِ لِلشكوكِ والشُّبهاتِ والداعيَةِ إِلى عدمِ الثِّقةِ بِما يَقولُهُ الرَّسُولُ الأَعظمُ ﷺ.

وكانَ الخليفَةُ «المَأمونُ» مَيَّالاً بِطبعِهِ نَحوَ مَذهبِ الاعتزالِ، فَقرَّبَ إِليهِ كبارَ عُلماءِ المُعتزلةِ وعَلى رأسِهِمْ: «ثُمامَةُ بنُ الأَشرسِ» والقاضي «أَحمدُ بنُ أَبي داؤدَ» الَّذي أَصبحَ قاضي القُضاةِ في عهدِهِ وعهدِ خليفَتِهِ «المُعتصمِ»، ولِهذا وجدَ المُعتزلةُ الفُرصةَ سانِحةً أَمامَهُمْ لِفرضِ آرائِهِمْ عَلى النَّاسِ، وبِشكلٍ خاصٍّ عَلى خُصومِهِم الاسْتراتيجيينَ أَهلِ السُنَّةِ

والحديثِ (المُحدِّثينَ)، ورَغبوا أَنْ يَكونَ مَذهَبُهُمْ هوَ السَّائِدُ في سائِرِ أَنحاءِ مَملكةِ الإسلامِ، فَابْتَدعوا مَسأَلةَ خلقِ القُرآنِ لِتكونَ مقياساً لانتسابِ غيرِهِمْ إِلى مَذهبِهِمْ أَو رَفضِهِ، بِناءً عَلى النَّظريَةِ الَّتي تَقولُ: «إِنَّ اللهَ وحدَهُ هوَ القَديمُ، وكُلُّ ما عداهُ ـ حتَّى كلامِهِ ـ فَهوَ مُحدثٌ ومَخلوقٌ».

فَتوَقَّفَ المُحَدِّثونَ عَن النُّطقِ بِهذِهِ المَسألةِ وقالوا: «القرآنُ كلامُ اللهِ، ولا نَقولُ مَخلوقٌ ولا غيرُ مَخلوقٍ، وإِثارةُ هذِهِ المَسأَلةِ بِدعةٌ». فَتحمَّسَ «المأمونُ» لِهذِهِ المَسأَلةِ، وصَدَّرَ كتاباً إِلى والي بَغدادَ «إِسحاقَ بنِ إِبراهيمَ» يَأمرُهُ بِحملِ النَّاسِ عَلى عَقيدةِ المُعتزلَةِ بِأَنَّ القّرآنَ مَخلوقٌ، وأَنَّ كُلَّ مَنْ يَقولُ بِخلافِ هذِهِ العقيدةِ فَهوَ ضالٌّ مُنحرفٌ عَنْ عقيدةِ التَّوحيدِ يَجبُ تَقويمُهُ والقَصاصُ مِنهُ حتَّى يُؤمنَ بِها!

عاشَ المجتمعُ الإِسلاميُّ هذِهِ المحنةَ، وعُزلَ قُضاةٌ، وطُردَ ولاةٌ، ومُنعَ عُلماءُ عَنِ التَّدريسِ والفُتيا بِسَبَبِها، وراحَ ضَحيَّتَها بَعضُ القُراءِ والمُحدِّثينَ، ووَقعَ النَّاسُ في بَلاءٍ عَظيمٍ، لا يَدرونَ ما يَفعلونَ إِزاءَ فِكرةٍ لا تَستَسيغُها عُقولُهُمْ، لأَنَّها كانَتْ فكرةً فلسفيَّةً صَرفَةً، اسْتطاعَ المُعتزلةُ بِها أَنْ يُشغلوا الدَّولةَ والخليفَةَ، ومِنْ ثمَّ كتبَ «المَأمونُ» إِلى والي بَغدادَ كتاباً آخرَ يأمرُهُ فيهِ بِجمعِ كبارِ الفُقهاءِ والمُحدِّثينَ في بَغدادَ، ويُخيِّرُهُمْ في هَذِهِ المَسألةِ، فَمَنْ أَيدَها أَطلقَ سراحَهُ، ومَنْ رَفضَها حبسَهُ وشَدَّدَ عليهِ حَتَّى يَقولَ: إِنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ!

❋ ❋ ❋

عِندما جمعَ والي بغدادَ الفُقهاءَ والمُحدِّثينَ، وقَرأَ عليهِمْ كتابَ المَأمونِ بِقطعِ عُنقِ مَنْ يَقولُ بِخلافِ عَقيدةِ المُعتزلةِ، أَيدَ جَميعُهُمْ عقيدةَ المُعتزلةِ خَوفاً على أَنفُسِهِمْ وإِبقاءً على حياتِهِمْ، إِلَّا اثنانِ مِنهُمْ: «أَحمدُ بنُ حنبل» و«مُحمَّدُ بنُ نوحٍ» فَقُيِّدا بِالسَّلاسِلِ والأَغلالِ، وحُملا إِلى الخليفَةِ المأمونِ في الرّقةِ، ولَكِنْ ماتَ المأمونُ قَبلَ وصولِهما إِلى الرّقَّةِ، فَحُملا مِنْ جَديدٍ إِلى بَغداد لِيَنظرَ «المُعتصمُ» خليفَةُ المأمونِ في أَمرِهما، حيثُ كانَ عَلى مذهبِ المُعتزلةِ أَيضاً.

وفي الطَّريقِ ماتَ «محمَّدُ بنُ نوحٍ» وهوَ يرسفُ في الأَغلالِ، وَبقيَ «أحمدُ بنُ حنبلٍ» لوحدِهِ يَقودُ المُعارضَةَ الفكريَّةَ والدِّينيَّةَ ضِدَّ عقيدةِ المُعتزلةِ، وكانَ بِإِمكانِهِ أنْ يَفلُتَ مِنَ العذابِ لو نَطقَ بِكلمةٍ واحدةٍ تَدلُّ عَلى موافقتِهِ لِعقيدةِ المُعتزلةِ، ولَكنَّهُ شَعرَ بِمسؤُوليَتِهِ تِجاهَ الأُمَّةِ والدِّين والعقيدةِ، إِذْ كانَت الجماهيرُ تَرنو إِليهِ لِتسيرَ وراءَهُ فيما يُبديهِ مِنْ رَأيٍ حيالَ عقيدةِ المُعتزلةِ، إِذْ لو لانَ أَو اسْتجابَ لِمطالبِ المُعتزلةِ لَسادَ مَذهَبُهُمْ في الأُمَّةِ، ولَطغَتْ آراؤُهُمْ وفَلسَفَتُهُمْ عَلى علمِ السَّلفِ الصَّالحِ، ولانْدثرَتْ علومُ الحديثِ والسُّنَّةِ، ولَفُتِحَ بابُ التأويلِ لأَحكامِ الدِّين والعقيدةِ عَلى مِصراعيهِ، وخاضَ كُلُّ لَجوجٍ مُغرضٍ في إِثارةِ الشُّبهاتِ حولَ عقيدةِ التَّوحيدِ، وبِالتَّالِي لَسَرَتْ جرثومَةُ الإِلحادِ في شَراييِنِ الأُمَّةِ، وبَعدَهُ يَكونُ الفَسادُ والانحلالُ في الأَخلاقِ والسُّلوكِ.

لَقَدْ قَضَى «قاهرُ المُعتزلةِ» في هذِهِ المحنَةِ ثلاثينَ شَهراً أَسيراً في سِجنِ العامَّةِ في بَغدادَ، ومَضَتْ عليهِ الشُّهورُ الأُولَى مِنها، وهوَ في تَعذيبٍ دائِمٍ، وتنكيلٍ مُستمرٍّ، فَتحمَّلَ

في سبيلِ نصرةِ الدِّين والعقيدةِ مِنَ الآلامِ ما تَنفطرُ لَها الأَكبادُ، وتَشيبُ منْ هولِها الولدانُ فَتلقَّاها بِصبرٍ واحتسابٍ.

ومِمَّا يؤسَفُ لَهُ حقّاً، أَنَّ خليفَةَ المُسلمينَ «المُعتصمَ» كانَ يُشرفُ معَ قاضي القُضاةِ عَلى تَعذيبِ الإِمامِ «أَحمدَ» ويَقفُ فوقَ رأسِهِ لِيَستَنطقَهُ بِالقُوَّةِ والإِرهابِ بِعقيدةِ المُعتزلةِ، فَكانَ الإِمَامُ السَّجينُ يُصرُّ عَلى قَولِ الحقِّ!

وصادفَتْ أَيَّامُ العذابِ شهرَ رَمضانَ، فَكانَ الإِمَامُ يَحدبُ على الصِّيامِ وهوَ يَئنُّ في أَغلالِهِ، ولَمْ يَفطرْ يوماً واحداً رغمَ أَنَّهُ أَشرفَ عَلى الهلاكِ أَكثرَ مِنْ مرَّةٍ، وربَّما أُخِّرَ عَنهُ الماءُ إِلى ما بعد الإفطارِ بِساعاتٍ، أَو مُنعَ عَنهُ الطَّعامُ ليومينِ أَو لِثَلاثةِ أَيامٍ.

ومِنْ أَصنافِ العذابِ الَّتي لاقاها «قاهرُ المُعتزلةِ» في حبسِهِ: أَنَّهُمْ كانوا يَربطونَ ذراعيهِ إِلى عضَاضَتين مِنَ الخشَبِ (وهيَ آلةُ تَعذيبٍ يُقالُ لَها الخلَّاعةُ) ثُمَّ يَشدونَ طَرفيهِما بِحبلٍ معلقٍ إِلى السَّقفِ بِحلقَةٍ، فَيَحُسُّ بِأَنَّ أَطرافَهُ تَنخَلعُ مِنْ جسمِهِ ويُآلِمُهُ ظَهرُهُ وصَدرُهُ بِشدَّةٍ.

ومِنها أَنَّهُمْ كانوا يَربطونَهُ إِلى عَمودٍ، ثُمَّ يَمرُّ عليهِ عُلوجُ الخليفَةِ مِنَ التُّركِ والدَّيلمِ واحداً واحداً، ويَكزونَهُ عَلى وَجهِهِ بِنِصالِ سيوفِهِمْ، أَو يُؤمَرُ بِطرحِهِ عَلى الأَرضِ ويَدوسونَ عَلى بَطنِهِ بِالأَقدامِ والنِّعالِ، أَو يُجلدُ جَلداً مُبرِحاً.

وكانَ يَجري كُلُّ ذَلِكَ بِأَمرِ الخليفَةِ وأَمامَ ناظريهِ، ورُبَّما أَنَّبَ الجلَّادينَ الَّذينَ يَتراخونَ

بِضربِهِ كَيْ يُضاعفوا قُوَّتَهُمْ بِضربِ السِّياطِ، وأَعيانُ المُعتزلةِ حولَهُ يَضحكونَ ويَسخَرونَ مِنَ الإِمامِ الصَّابرِ الحليمِ.

«لا حولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العليِّ العَظيمِ» كانَت البَلسَمَ الَّذي يُواسي بِها الإِمَامُ العَظيمُ نَفسَهُ وسطَ أُتونِ العذابِ الَّذي لا يَصبرُ عليهِ إِلَّا أُولو العزمِ مِنْ أَشاوسِ الرِّجالِ الَّذينَ أُيِّدوا بِفضلٍ وكرامةٍ مِنَ اللهِ الكبيرِ المُتعالي.

وبينَ الفترةِ والأُخرَى كانَتْ تَتسرَّبُ إِلى الشَّارعِ العامِّ أَخبارُ ما يَتعرضُ لَهُ «قاهرُ المُعتزلةِ» عَلى أَيدي زَبانيَةِ الخليفَةِ، فَتهتفُ جُموعُ النَّاسِ هُنا وهُناكَ: «اللهُ أَكبرُ... عاشَ الإِمَامُ أَحمدُ بنُ حنبل!».

وهكذا صارَتْ محنَةُ الإِمامِ الصَّابرِ الحليمِ مَلحمةً شَعبيَّةً أَكبرَها النَّاسُ، وسارَتْ بِها الرُّكبانُ في جميعِ أَنحاءِ مَملكةِ الإِسلامِ. ولَمَّا أَدركَ المُعتصمُ أنَّ ولاءَ النَّاسِ لَهُ في نُقصانٍ، وشَعبيَّةَ «قاهرِ المُعتزلةِ» في ازديادٍ، أَمرَ بِإِطلاقِ سَراحِهِ خَوفاً مِنْ ثَورةٍ عارمةٍ عليهِ يُؤجِّجُها العُلماءُ المُخلصونَ لِدينِهِمْ وعَقيدتِهِمْ بَعدَ تَكهرُبِ الجوِّ العامِّ لِلبلادِ بِسببِ هَذِهِ المحنةِ.

خَرجَ «قاهرُ المُعتزلةِ» مِنْ أَسرِهِ، واسْتقبلَتْهُ جماهيرُ النَّاسِ بِاحتفاءٍ عارمٍ طَغَى على جميعِ أَنحاءِ البِلادِ فَرحاً وابتهاجاً بِانتهاءِ هذِهِ المِحنةِ الَّتي لَمْ يَجنِ منها المُعتزلةُ إِلَّا الخُسرانَ المُبينَ، وزَرعوا في قلوبِ النَّاسِ الكراهيَةَ لَهُمْ.

يقولُ «أَحمدُ أَمين» في كتابِهِ الرَّائعِ «ضُحَى الإِسلامِ»: «ولَمْ يَستردَّ المُعتزلةُ سُلطَتَهُمْ يوماً ما بَعدَ المحنَةِ».

أَمَّا الإِمَامُ أَحمدُ بنُ حنبل فَلَمْ يَزلْ في صعودٍ واعتلاءٍ حَتَّى تواضَعَتِ القُلوبُ عَلى حُبِّهِ مِنَ العَامَّةِ والأَعيانِ والعُلماءِ، حَتَّى قالَ قائِلُهُمْ: «مَنْ سَمعتموهُ يَذكرُ أَحمدَ بنِ حنبل بِسوءٍ فَاتَّهموهُ عَلى الإِسلامِ». وقالَ في حَقِّهِ كبيرُ مُحدِّثي عَصرِهِ، وشَيخُ الإِمامِ البُخاريِّ «عليُّ بنُ المدنيّ»: «إِنَّ اللهَ أَعزَّ هذا الدِّينَ بِأَبي بَكرٍ الصِّديقِ يومَ الرِّدَّةِ، وبِأَحمدَ بنِ حنبل يَومَ المِحنَةِ».

توفي الإِمامُ «أحمدُ بنُ حنبل» سنةَ (241) هجريَّةً، بَعدَ أَنْ مرضَ ولَزمَ الفراشَ تسعةَ أَيّامٍ مُتواليَة، وكانَ النَّاسُ يَدخلونَ عليهِ أَفواجاً لِيَعودوهُ ويُسَلِّموا عليهِ، وتَعطلتْ بَعضُ الأَسواقِ القريبَةِ مِنْ دارِهِ لِازدحامِ النَّاسِ عَلى دارِهِ، وجاءَ العَسكرُ والعسَسُ يُنظِّمونَ دخولَ النَّاسِ عليهِ، وقُبِضَ صدرَ النَّهارِ مِنْ يَومِ الجُمعةِ، وأُخرجَتْ جنازتُهُ عقبَ صلاةِ الجُمعةِ، وشَيَّعَها جمعٌ غفيرٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يُرَ مثلُهُ في تاريخِ بَغدادَ، فبلغَ عَددُ المُشيعينَ مِنَ الرِّجالِ نَحوَ أَلفِ ألفِ رَجلٍ، وستينَ ألفِ امرأةٍ، غيرَ السُّفنِ الَّتي جابَتْ نَهرَ دجلةَ حزناً وغَمّاً وتوديعاً لِلإِمامِ قاهرِ المُعتزلةِ، ويُقالُ: إِنَّ أَبوابَ الدُّورِ والمَنازلِ فُتحتْ على الشَّوارعِ كَي يَتَسَنَّى لِمَنْ حضرَ جنازتَهُ الوضوءُ.

الأَسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا بلغَ الإِمَامُ أحمدُ بنُ حنبل في زُهدِهِ ووَرعِهِ وتَواضُعِهِ؟

2 ـ لِماذا كانَ الإِمَامُ أحمدُ بنُ حنبل حجَّةً على أهلِ زمانِهِ؟

3 ـ لِماذا كانَ عَصرُ الإمامِ أحمدَ أَحوجَ ما يكونُ إِلى مِثلِهِ مِنَ العُلماءِ؟

4 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ الإِمامِ أحمدَ منْ جهةِ أبيهِ وأُمِّهِ؟

5 ـ ماذا أَوَّلَ المُعتزلةُ، ولِماذا قَرَّبَهُم المَأمونُ إِليهِ؟

6 ـ ماذا قالَ المُحَدِّثونَ في قَضيَّةِ خلقِ القُرآنِ؟

7 ـ لِماذا أمرَ المُعتصمُ بِإِطلاقِ سَراحِ الإِمامِ أَحمدَ بنِ حنبل؟

8 ـ ماذا قالَ عليُّ بنُ المدنيِّ بِحقِّ الإِمامِ أَحمدَ بنِ حنبل؟

الإِمامُ أبو الحسنِ الأَشعريُّ
ناصرُ السُّنَّةِ
(270 ـ 324هـ)

الإِمَامُ أبو الحسنِ الأَشعريُّ، ناصرُ السُّنَّةِ، ورَجلُ العلمِ والدِّين، العالمُ الفَذُّ المُجاهدُ بِعلمِهِ وعَملِهِ، مَنْ نصرَ اللهُ بِهِ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ على حينِ فترةٍ مِنَ التَّاريخِ، فَألحقَ بِالمُتَكَلِّمِينَ والمُتَفَلْسِفِينَ والمُزاودينَ عَلى الدِّين والعَقيدةِ ضَرباتٍ موجعةً، وأنزلَ بِهِمْ هزائِمَ مُتتاليَةً، فَلَمْ تَقمْ لَهُمْ قائِمةٌ بَعدَها، ولَئِنْ كانَ الإِمَامُ أَحمدُ بنُ حَنبل يُعتبَرُ قاهر المُعتزلَةِ، فَإِنَّ الإِمامَ الأَشعريَّ يُعتبَرُ بِحقٍّ ناصر السُّنَّةِ، ومُخلِّصُ العقيدةِ مِنْ خَطرِ التَأويلاتِ الباطلةِ، والآراءِ المُنحرفَةِ الَّتي حاولَ أنْ يُقحمَها فيها أَهلُ الباطلِ والزَّيفِ مِنْ أَدعياءِ العلمِ والثَّقافَةِ.

لَقَدْ خَلَّصَ «أَبو الحسنِ الأَشعريُّ» بِغزارةِ علمِهِ، وقُوَّةِ حجَّتِهِ واسْتدلالِهِ العقولَ مِنْ حيرَتِها وارتيابِها وهيَ تَخوضُ في المَسائِلِ الَّتي لا يَجوزُ الخَوضُ فيها فيما يَتعلَّقُ بِذاتِ اللهِ ﷻ وصِفاتِهِ، لأنَّ العقلَ يَعجزُ عَنْ إِدراكِ ذَلِكَ. كما أنَّ البَحثَ في هكذا مسائِلَ مِنْ شَأنِهِ أَنْ يُثيرَ الشُّكوكَ ويُضعفَ الإِيمانَ في عقلِ المرءِ وقلبِهِ، وكَما أُثِرَ عَنِ النَّبيِّ الأَكرمِ ﷺ أَنَّها توصِلُ

إلى الضَّلالاتِ والأَوهامِ، ومِنْ ثمَّ بيَّنَ الإِمَامُ الأَشعريُّ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في تاريخِ العُلومِ الشَّرعيَّةِ والعقليَّةِ، أَنَّ أُصولَ الإِيمانِ وأَركانَ العقيدةِ، هيَ أُمورٌ صَحيحَةٌ لا يَجوزُ الشَّكُّ فيها أَو تأويلُها وتَفسيرُها حسبَ الأَهواءِ، لأَنَّ مصدرَها كتابُ اللهِ ﷻ، وسُنَّةُ المُصطفَى ﷺ، فَما يَنبغي مُعارضَةُ كلامِ اللهِ ﷻ، وسُنَّةِ رَسولِهِ الأَمينِ ﷺ بِدواعي العلمِ والعَقلِ، كما فَعلَ المُعتزلَةُ وغيرُهُمْ.

كما رأبَ الإِمَامُ الأَشعريُّ الصَّدعَ الَّذي أَحدثَهُ المُعتزلةُ بينَ العلمِ والدِّين، أَو بينَ العَقلِ والوحي كَما يُقالُ، فَقَدْ صَوَّرَ المُعتزلَةُ لِلعامَّةِ أنَّ هُناكَ جَفاءً وعداوةً بينَ العلمِ والدِّين وبينَ العقلِ والوَحي، وأنَّ الكلامَ الفَصلَ دائِماً لِلعقلِ حَتَّى في الأُمورِ الإِلهيَّةِ، فَأَثبتَ لَهُم الإِمَامُ الأَشعريُّ بِالحجَجِ والبَراهينِ العلميَّةِ والعقليَّةِ القاطعَةِ، أنَّ الحقائِقَ الدِّينيَّةَ لا تَتعارضُ معَ العِلمِ والعقلِ أَبداً، بَلْ هيَ حقائِقُ علميَّةٌ وعقليَّةٌ أَساسُها علمُ النُّبوَّةِ، وعلمُ النُّبوَّةِ أَساسُهُ الوَحيُ المُنزَّلُ مِنْ عندِ علَّامِ الغُيوبِ، والوَحيُ مَصدرُ العلمِ وأَساسُهُ، ولا يَرقَى إِليهِ الشَّكُّ أَو البُطلانُ، أَما علمُ المَنطقِ العقليُّ الَّذي كانَ سِلاحَ المُعتزلةِ في تأويلِ الحقائِقِ الدِّينيَّةِ وتَفسيرِها فَمَصدرُهُ العَقلُ البَشريُّ، والعقلُ علمُهُ غيرُ كاملٍ ويَعتريهِ الخَطأُ والشَّكُّ والبُطلانُ.

امتازَ الإِمَامُ الأَشعريُّ عَنْ غيرِهِ مِنَ العُلماءِ والمُصلحينَ، أَنَّهُ كانَ يَمشي بِرجليهِ إِلى أَهلِ البِدعِ والضَّلالاتِ مِنْ مُعتزلةٍ وغيرِهِمْ مِنَ المُتَكَلِّمينَ والمُتَفَلْسِفينَ، ويَدعوهُمْ بِالحجَّةِ والبُرهانِ إِلى إِيمانٍ وعقيدةِ السَّلفِ الصَّالحِ، فَلما قيلَ لَهُ:

كيفَ تُخالِطُ أَهلَ البِدعِ وتَقصدُهُمْ بِنفسِكَ وقَدْ أُمرتَ بِهجرِهِمْ؟

فَيقولُ: هُمْ أُولو رِياسَةٍ، مِنهُم الوالي والقاضي، ولِرياسَتِهِمْ لا يَنزلونَ إِليَّ، ولا أَسيرُ أنا إِليهِمْ، فكيفَ يَظهرُ الحَقُّ، ويَعلمونَ أَنَّ لأَهلِ السُّنَّةِ ناصراً بِالحجَّةِ؟

❁ ❁ ❁

هوَ ناصرُ السُّنـَّةِ، الدَّاعيَةُ والمُصلحُ المُفكِّرُ والعَـلَّامةُ إمامُ المُتَكَلِّمِينَ أَبو الحسـنِ عليُّ بنُ إسماعيلَ بنِ أبي بشرٍ إسحاقَ بنِ سالمِ بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسَى بنِ أميرِ البَصرةِ بلالِ بنِ أبي بردةَ بن أبي موسى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ بنِ حَضَّارٍ الأشعريُّ اليمانيُّ، يَنتَهي نَسبُهُ إِلى الصَّحَابِيِّ الجليلِ صاحبِ الفَضائِلِ المَشهورةِ «أَبي موسَى الأَشعريِّ» رضي الله عنه، والأَشعريونَ قبيلَةٌ يَمانيَةٌ مَعروفَةٌ كانَ مِنها العديدُ مِنَ العُظماءِ والفُرسانِ والعُلماءِ المَذكورينَ في تاريخِنا العربيِّ والإِسلاميِّ، وهُم الَّذينَ عَناهُم النَّبيُّ الأَعظمُ ﷺ في حديثِهِ المَشهورِ وهوَ يَحضُّ جماعةَ المؤمنينَ عَلى التَّعاونِ والإِخلاصِ في العملِ بِقولِهِ: «**إِنَّ الأَشعريينَ إِذا أرمَلوا في الغَزوِ أَو قَلَّ طعامُ عيالِهِمْ بِالمدينةِ، جَمَعوا ما عِندَهُمْ في ثوبٍ واحدٍ، ثُمَّ اقتَسموهُ بينَهُمْ في إِناءٍ واحدٍ، بِالسَّويَةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنا مِنهُمْ**»[1].

ولِدَ الإِمَامُ الأَشعريُّ في البَصرةِ سنةَ (270) هجريَّةً، ولَمْ يَتجاوز السَّنواتِ الأُولَى مِنْ عمرِهِ حَتَّى ماتَ أَبوهُ، وتَركَهُ وحيداً معَ أُمِّهِ، فَتزوَّجَتْ أُمُّهُ مِنْ إِمامِ المُتَكَلِّمِينَ وشَيخِ المُعتزلةِ «أَبي عليٍّ الجبائيِّ» فَنشـأ وتَرعرعَ الأَشـعريُّ في كَنَفِهِ، ورُبِّي عَلى العِلمِ بِإِشـرافِهِ

(1) متفق عليه.

وعنايَتِهِ، وعِندَما كَبُرَ الأَشعريُّ كانَ مواظِباً عَلى حُضورِ مَجلسِ زَوجِ أُمِّهِ الَّذي كانَ يَجتمعُ فيهِ كِبارُ المُعتزلةِ، وتَشَرَّبَ أُصولَ مذهبِ الاعتزالِ، وصارَ عَلماً مِنْ أَعلامِهِمْ، وكَثيراً ما كانَ يَنوبُ عَنِ «الجبائيِّ» ويَترأَّسُ مجلسَهُ العلميَّ، وبَرزَ كَشخصيَّةٍ قياديَّةٍ واعتباريَّةٍ بينَ المُعتزلَةِ، يُرجعُ إِليهِ في أُصولِ وتَعاليمِ ومبادئِ مَذهبِ الاعتزالِ.

ولَكنَّهُ في المرحلةِ الثَّانيَةِ مِنْ حياتِهِ، تابَ عَنْ مَذهبِ الاعتزالِ، وشَرحَ اللهُ صدرَهُ لِمذهبِ السَّلفِ، فالتزمَ مذهبَ أَهلِ السُّنَّةِ والحديثِ الَّذي كانَ يَتزعَّمهُ «أَحمدُ بنُ حنبل»، وشَرعَ يَذودُ عَنهُ، ويَكشفُ زَيفَ مذهبِ الاعتزالِ، وفسادَ آراءِ المُعتزلةِ حَتَّى أَصبحَ مِنْ كبارِ أَعدائِهِمْ بَعدَ أَنْ كانَ فيهِمْ مرجعاً وإِماماً.

ويَذكرُ العلَّامةُ المُرتضَى الحنفيُّ في كتابِهِ «إِتحافِ المُتَّقينَ» رجوعَ الأَشعريِّ عَنْ مذهبِ الاعتزالِ فَيقولُ: «أَبو الحَسنِ الأَشعريُّ أَخذَ علمَ الكلامِ عَنِ الشَّيْخِ أَبي عليٍّ الجبائيِّ شيخِ المُعتزلةِ، ثُمَّ فارقَهُ لِمنامٍ رآهُ، ورَجعَ عَنِ الاعتزالِ، وأَظهرَ ذَلكَ إِظهاراً، فصعدَ منبرَ البصرةِ يومَ الجُمعةِ ونادَى بِأَعلَى صوتِهِ: (مَنْ عرفَني عرفَني، أَنا فُلانُ بنُ فُلانٍ، كنتُ أَقولُ بِخلقِ القُرآنِ، وأَنَّ اللهَ لا يُرى بالدَّارِ الآخرةِ بِالأَبصارِ، وأَنَّ العبادَ يَخلقونَ أَفعالَهُمْ، وها أنا تائِبٌ مِنَ الاعتزالِ، مُعتقداً الرَّدَّ عَلى المُعتزلةِ)، ثُمَّ شرعَ في الرَّدِ عليهِمْ، والتَّصنيفِ عَلى خِلافِهِمْ».

ويَذكرُ ابنُ عساكرَ الدِّمشقيُّ في كتابِهِ (التَّبيينِ) عَنِ ابنِ عزرةَ، قالَ: «إِنَّ أَبا الحسنِ الأَشعريَّ كانَ مُعتزلياً، وإِنَّهُ أَقامَ على مَذهبِ الاعتزالِ أَربعينَ سَنةً، وكانَ لَهُمْ إِماماً، ثُمَّ

غابَ عَنِ النَّاسِ في بيتِهِ خَمسَةَ عشرَ يوماً، ثُمَّ خرجَ بَعدَ ذَلِكَ إلى جامعِ البَصرةِ، وصعدَ المنبرَ بَعدَ صلاةِ الجُمعةِ وقالَ:

معاشرَ النَّاسِ، إِنِّي إِنَّما تَغيَّبتُ عَنكُمْ في هذِهِ المُدَّةِ، لأَنِّي نَظرتُ فَتكافأتْ عندي الأَدلَّةُ، ولَمْ يَترجَّحْ عِندي حَقٌّ عَلى باطلٍ، ولا باطلٌ عَلى حَقٍّ، فَاسْتَهديتُ اللهَ تباركَ وتَعالَى، فَهداني إِلى ما أَودعتُهُ في كُتبي هَذِهِ، وانخلعتُ مِنْ جَميعِ ما كُنتُ أَعتقدُهُ، كما انخلعتُ مِنْ ثوبي هذا) ـ وانخلَعَ مِنْ ثوبٍ كانَ عليهِ ورَمى بِهِ ـ. ودفعَ الكُتبَ إِلى النَّاسِ، فَمنها كتابُ (اللُّمعِ) وغيرُهُ مِنْ تواليفِهِ، فَلمَّا قرأَ تلكَ الكُتبَ أَهلُ الحديثِ والفقهِ مِنْ أَهلِ السُّنةِ والجماعةِ، أخذوا بِما فيها وانتحلوهُ، واعتقدوا تَقدُّمَهُ واتَّخذوهُ إِماماً، حَتَّى نَسبَ مَذهَبَهُمْ إِليهِ».

ثُمَّ يَذكرُ أَنَّهُ صارَ أَعدَى الخلقِ إِلى المُعتزلةِ «فَهُمْ يُشَنِّعونَ عليهِ، ويَنسبونَ إِليهِ الأَباطيلَ، وليسَ طولُ مُقامِ أَبي الحسَنِ على مَذهبِ الاعتزالِ ما يُفضي بِهِ إِلى انحطاطِ المَنزلةِ، بَلْ يَقضي لَهُ في معرفَةِ الأُصولِ بِعلوِّ المَرتبَةِ، ويَدلُّ عندَ ذَوي البَصائرِ لَهُ على سُموِّ المَنقبَةِ، لأَنَّ مَنْ رجعَ عَنْ مَذهبٍ كانَ بِعوارِهِ أَخبرَ، وعَلى رَدِّ شُبَهِ أَهلِهِ وكشفِ عوراتِهِمْ أَقدرَ».

❋ ❋ ❋

يَذكرُ الإِمَامُ أَبو الحسَنِ الأَشعريُّ في مُقدِّمةِ كتابِهِ «الإِبانةِ في أُصولِ الدّيانَةِ» تَجربَتَهُ النَّفسيَّةَ، وحيرَتَهُ العقليَّةَ، اللَّتَينِ عاشَهُما قَبلَ تَحوُّلِهِ عَنْ مذهبِ الاعتزالِ، هذِهِ التَّجربَةُ

الَّتي تُشبِهُ إلى حَدٍّ بعيدٍ تَجربَةَ الإمامِ الغزاليِّ في رِحلتِهِ بينَ الشَّكِّ واليَقينِ، فَإنْ كانَتْ هدايَةُ الغزاليِّ تَمَّتْ بِنورٍ قَذفَهُ اللهُ في قلبِهِ، فَإنَّ هدايَةَ الإمامِ الأَشعريِّ تَمَّتْ بِوحيٍ وإلهامٍ وإرشادٍ مِنْ خيرِ البَريَّةِ، ورَسولِ البَشريَّةِ أَجمع.

قالَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ نَفسِهِ: «وَقعَ في صَدري في بَعضِ اللَّيالي شَيءٌ مِمَّا كُنتُ فيهِ مِنَ العقائِدِ، فَقمتُ وصَلَّيتُ ركعتينِ، وسَألتُ اللهَ أَنْ يَهديني الطَّريقَ المُستقيمَ، ونمتُ فَرأَيتُ النَّبيَّ ﷺ في المَنامِ، فشَكوتُ بَعضَ ما بي مِنَ الأَمرِ.

فَقَالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «**عليكَ بِسُنَّتي**»، فَانْتَبَهتُ، وعارَضتُ مَسائِلَ الكلامِ بِما وَجدتُ في القُرآنِ والأَخبارِ فَأَثبَتُّهُ، ونَبذتُ ما سِواهُ وراءَ ظَهري».

ويَذكرُ بَعضُ المُؤَرِّخِينَ أَنْ تِلكَ الهدايَةَ الَّتي تَلقَّاها أَبو الحَسنِ مِنَ النَّبيِّ الأَكرمِ ﷺ كانَتْ في شَهرِ رَمضانَ المُباركِ، وإنْ دَلَّ ذَلكَ عَلى شَيءٍ، فَإنَّما يَدلُّ على أَنَّ الإمامَ الأَشعريَّ كانَ عالِماً رَبَّانيّاً مُتعبِّداً وحانثاً إلى رَبِّهِ يَستخيرُهُ في الملمَّاتِ والحادثاتِ الَّتي تَعترضُ حياتَهُ، ويَنزلُ عندَ أَمرِهِ وقَضائِهِ بِرضا وقُبولٍ؛ عَملاً بِقولِهِ تَعالَى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

وبِناءً عَلى هذِهِ النَّزعةِ الدِّينيَّةِ القَويَّةِ والصَّادقَةِ، انطلقَ أَبو الحَسنِ يَردُّ عَلى الانحرافِ الَّذي أَشاعهُ المُعتزلةُ وأَشباهُهُمْ في الدِّين والعَقيدةِ، مُقتفياً أَثرَ الإمامِ «أَحمدَ بنِ حنبل»، مُتَّبِعاً مَنهجَ الكتابِ والسُّنَّةِ، مُستَهدياً بِعقيدةِ السَّلفِ الصَّالحِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ إليهِمْ بِإحسانٍ.

وها هوَ يَشرحُ عقيدتَهُ الَّتي يُدينُ بِها: «وقَولُنا الَّذي نَقولُ بِهِ، وديانَتُنا الَّتي نُدينُ بِها، التَّمسُّكُ بِكتابِ رَبِّنا ﷻ وبِسُنَّةِ نبيِّنا ﷺ، وما رُويَ عَن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأَئِمَّةِ الحديثِ، ونَحنُ بِذلكَ مُعتصمونَ، وبِما كانَ ما يَقولُ بِهِ «أَبو عبدِ اللهِ أَحمدُ بنُ مُحمَّدِ بنِ حنبل» ـ نَضَّرَ اللهُ وَجهَهُ، ورَفعَ درجَتَهُ، وأَجزلَ مَثوبَتَهُ ـ قائِلونَ، ولِما خالفَ قولَهُ مُخالفونَ، لأَنَّهُ الإِمَامُ الفاضلُ، والرَّئيسُ الكاملُ الَّذي أَبانَ اللهُ بِهِ الحقَّ، ورَفعَ بِهِ الضَّلالَ، وأَوضَحَ بِهِ المنهاجَ، وقَمعَ بِهِ بدعَ المُبتدعينَ، وزيغَ الزَّائِغينَ، وشَكَّ الشَّاكِّينَ، فَرحمةُ اللهِ عليهِ مِنْ إِمامٍ مُقدَّمٍ، وخليلٍ مُعظَّمٍ مُفَخَّمٍ».

ومِنْ هذا المَبدأِ، انتقَدَ أَبو الحَسنِ عقائِدَ المُعتزلَةِ، وأهلِ القَدرِ، وغيرَهُمْ مِنَ الفرقِ الَّذينَ جعلوا القُرآنَ عضينَ، ولَمْ يَتَّخذوهُ لَهُمْ إِماماً وحُجَّةً وبُرهاناً.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ الإِمَامُ الأَشعريُّ رَجلَ عَصرِهِ بَحقٍّ، فهو الَّذي أَعاد للدِّينِ هيبَتَهُ، ورَدَّ عقائِدَ العبادِ إِلى مَصدرِها الأَساسي (كتابِ اللهِ وسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ)، وصارَ مَذهَبُهُ المُعتدلُ في الدِّينِ والعقيدةِ هو السَّائِدُ في مُجتمعِ الإِسلامِ ودولَتِهِ، وأُطلِقَ عليهِ: مَذهب أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ.

يَقولُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ مُدَلِّلاً عَلى عظمةِ شَخصيَّةِ الإِمامِ الأَشعريِّ، وحقانيَّةِ مَذهبِهِ المُعتدلِ: «ليسَ سِرُّ عَظمةِ الإِمامِ الأَشعريِّ في التَّاريخِ، وجلالةِ العملِ الَّذي قامَ بِهِ، في أَنَّهُ دافعَ عَن السُّنَّةِ دفاعاً قَويّاً. إِنَّ سِرَّ عَظمتِهِ وعبقريَّتِهِ في أَنَّهُ اتَّخذَ طريقاً وَسطاً بينَ

المُعتزلةِ والمُحدِّثينَ، فَلَمْ يَذهبْ كما ذَهبَ المُعتزلةُ إلى تَمجيدِ العقلِ والإيمانِ بِأنَّ لَهُ سُلطةً لا تُحدُّ، وأَنَّ لَهُ الحكمَ على الذَّاتِ والصِّفاتِ الإلهيَّةِ وما وراء الطَّبيعيَّاتِ، وأنَّ لَهُ الكلمةَ الأَخيرةَ النَّافذةَ في كُلِّ موضوعٍ، ولَمْ يَرَ كَذَلكَ ـ كما رَأَى كثيرٌ مِنْ أَهلِ عصرِهِ ـ أَنَّ الانتصارَ والدِّفاعَ عَن العقيدةِ الإسلاميَّةِ يَستلزمانِ إنكارَ العقلِ وقُوَّتَهُ إلى حَدِّ ما وازدراءَهُ، وأنَّ السُّكوتَ عَنْ هذِهِ المباحثِ الَّتي يُثيرُها المُعتزلةُ وأَضرابُهُمُ الَّتي نَشأَتْ بِحكمِ تَطوُّرِ العَصرِ، والاحتكاكِ بِالأُممِ والدّياناتِ أَولَى وأَفضلُ، بِالعكسِ مِنْ ذَلكَ: هوَ عُنيَ بِهذِهِ المَباحثِ، لَأَنَّها كانَتْ تُزلزلُ العقيدةَ الإسلاميَّةَ، وتُضعفُ الثِّقةَ بِالدِّين، وباحثَ المُعتزلةَ والمُتَفَلْسِفِينَ، وناقَشَهُمْ في مُصطلاحاتِهِمْ، ولُغَتِهِم العلميَّةِ، وعملَ بِالكَلمةِ المَأثورةِ: «كَلِّموا النَّاسَ عَلى قَدرِ عقولِهِمْ، أَتريدونَ أَنْ يُكذَّبَ اللهُ ورَسولُهُ؟»، وكَأَنَّهُ كانَ يَعتقدُ أَنَّ العالمَ إذا كَلَّمَ عاميّاً فوقَ مُستواهُ العلميِّ والعقليِّ، كانَ ذَلكَ باعثاً عَلى الإنكارِ وتكذيبِ اللهِ ورَسولِهِ. كذَلكَ إذا كانَ عالماً أو ذَكياً أَو مُتَشَكِّكاً دونَ مُستواهُ العلميِّ والعقليِّ، كانَ مُثيراً لِلشُّكوكِ، وداعياً إلى الجُحودِ والإنكارِ، فَكانَ فَهمُهُ لِهذِهِ الوَصيَّةِ الحكيمةِ فَهماً أَوسعَ، وتَطبيقُهُ لَها تَطبيقاً أَشملَ، وبِذلِكَ خَدمَ أَبو الحسَنِ هذا الدِّينَ في عَصرِهِ خدمةً باهرةً، وأَعادَ إلى نُفوسٍ وعُقولٍ كثيرةٍ لا يَعلمُ عَددَها إلَّا اللهُ، الثِّقةَ بِهذا الدِّين، والإيمانَ بِهِ مِنْ جَديدٍ».

❁ ❁ ❁

أَشارَ العَلَّامةُ «صلاحُ الدِّين الصَّفديُّ» في كتابِهِ «أَعيانِ العصرِ وأَعوانِ النَّصرِ» إلى أَنَّ

الإمامَ الأَشعريَّ أَحدُ الَّذينَ جَدَّدوا لِهذِهِ الأُمَّةِ دينَها، وهُم الَّذينَ أَشارَ إِليهِم النَّبيُّ الأَعظمُ بِقولِهِ: «**يَبعثُ اللهُ عَلى رأسِ كُلِّ مئة سَنةٍ لِهذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُجدِّدُ لَها أَمرَ دينِها**».

كانَ عَلى رأسِ المئة الأُولَى «عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ»، والمئة الثانيَّةِ «الإِمَامُ الشَّافعيُّ»، والمئة الثَّالثَةِ «أَبو الحَسنِ الأَشعريُّ»، ويَقولُ عَنهُ: «فَإِنَّ الأَشعريَّ جاءَ لأُصولِ الدِّين، لأنَّ المُعتزلةَ كانوا قَدْ طَبقوا الأَرضَ، فَحجزَهُمْ ﷺ في قُمقُمِ السّمسمِ».

ولعلَّ هذا ما ذَهبَ إِليهِ ابن عساكرَ الدِّمشقيُّ أَيضاً بِقولِهِ: إِنَّ الإِمامَ الأَشعريَّ نَصرَ مَذهبَ أَهلِ الحقِّ والسُّنَّةِ، والنَّاسُ في ذَلكَ الزَّمانِ إِلى إِقامةِ الحقِّ والدِّين والذَّبِّ عَنِ السُّنَّةِ وإِبطالِ مَذهبِ البِدعةِ بِقواطعِ الأَدلَّةِ والبَراهينِ المُفحمةِ المُقرَّرةِ في علمِ الأُصولِ أَحوج مِنهُمْ إِلى مَعرفَةِ الفُروعِ.

خلفَ الإِمَامُ الأَشعريُّ العديدَ مِنَ المُؤَلَّفَاتِ، ولَكنَّ أَشهرَ مُؤَلَّفَاتهِ عَلى الإِطلاقِ:

1 ـ كتابُ الإِبانةِ في أُصولِ الدّيانةِ: وهوَ الكتابُ الَّذي نَقضَ فيهِ مذهبَ الاعتزالِ، ورَدَّ فيهِ عَلى النَّصارَى واليَهودِ والمَجوسِ وغيرِهِمْ مِنْ أَصحابِ البِدعِ والضَّلالاتِ.

2 ـ كتابُ مقالاتِ الإِسلاميينَ: وهوَ كتابٌ هامٌّ في تاريخِ وعلمِ العقائِدِ، ودوَّنَ فيهِ مُجملَ آرائِهِ في الفكرِ والدِّين والعقيدةِ، وبَحثَ في الفرقِ الإِسلاميَّةِ.

3 ـ كتابُ اللُّمعِ: وهوَ كتابٌ في علمِ الإِلهياتِ، يَبحثُ فيهِ في أَوجهِ الاستدلالِ عَلى وجودِ اللهِ وصفاتِهِ، والأُصولِ السِّتَّة عَشر لِلعقيدةِ الإِسلاميَّةِ.

وقَدْ بَلغَتْ مُؤَلَّفَاتهُ الَّتي فرغَ منها سنةَ (320) هجريّةً (68) مُؤلَّفاً كثيرٌ منها يَقعُ في عَشرِ

مُجلداتٍ أو أَكثرَ، ولَهُ تَفسيرٌ كبيرٌ وجامعٌ لِلقُرآنِ الكريمِ، وتَمَيَّزَتْ مُؤَلَّفَاتهُ بِالدِّقةِ والموضوعيَّةِ اعترفَ لَهُ فيها المُستشرقونَ بِالأَمانةِ وتَحري الصِّدقِ في النَّقلِ.

توفِّي الإِمَامُ الأَشعريُّ سنةَ (324) هجريَّةً، ونوديَ يومَ وفاتِهِ: «اليومَ ماتَ ناصرُ السُّنَّةِ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا ألحقَ الإِمَامُ الأَشعريُّ بِالمُتَكَلِّمِينَ والمُتَفَلْسِفِينَ والمُزاوِدينَ عَلى الدِّينِ؟

2 ـ ماذا يُعتبَرُ الإِمَامُ الأَشعريُّ؟

3 ـ لِماذا لا يَجوزُ للعقلِ أنْ يَخوضَ في المسائِلِ الَّتي تتعلَّقُ بِذاتِ اللهِ؟

4 ـ بِماذا امتازَ الإِمَامُ الأَشعريُّ عَنْ غيرِهِ مِنَ العُلماءِ والمُصلحينَ؟

5 ـ ماذا قالَ النَّبيُّ ﷺ في حَقِّ الأَشعريينَ؟

6 ـ كيفَ هُديَ الإِمَامُ الأَشعريُّ إِلى الحَقِّ؟

7 ـ ما هيَ الكلمةُ الَّتي عملَ بِها الإِمامُ الأَشعريُّ في مناقشةِ خُصومِهِ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤَلَّفَات الإِمامِ الأَشعريِّ؟

حُجَّةُ الإسلامِ
الإمامُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ
ناقدُ الفَلسفةِ
(450 ـ 505هـ)

حُجَّةُ الإِسلامِ، الإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ، ناقدُ الفلسفةِ، وصاحبُ كتابِ «إِحياءِ علومِ الدِّينِ»، قاهرُ المُتَكَلِّمِينَ، وجامعةُ العلومِ والمَعارفِ. هوَ مِنَ الشَّخصيَّاتِ العلميَّةِ الَّتي يُفاخرُ بِها تاريخُنا الإِسلاميُّ، ويُباهي بِها الأُممَ والشُّعوبَ، وكيفَ لا؟! وهوَ الَّذي أَلجمَ الفَلسفَةَ، ودعا إِلى إِيمانٍ بسيطٍ خالٍ مِنَ التَّعقيدِ، وبعيدٍ عَنِ النَّظرِ الفَلسفيِّ الَّذي يَستندُ إِلى التَّخميناتِ والافتراضاتِ، وفي كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ يُوصلُ إِلى الشَّكِّ وعدمِ اليَقينِ، فَهوَ الَّذي وَجَّهَ إِلى الفَلسفَةِ طعنةً قَاتلةً لَمْ تَقُمْ لَها قائِمةٌ مِنْ بَعدِها، وأَقصاها عَنْ مسرحِ الحياةِ الفكريةِ والعقليَّةِ عِندَ العربِ والمُسلمينَ، بَعدَ أَنْ هَيمَنَتْ عَلى عقولِ بَعضِ العُلماءِ والمُفَكِّرِينَ زهاءَ ثلاثمئةِ عامٍ.

قَضَى الإِمَامُ الغزاليُّ عَلى مَضجعِ الفلاسفَةِ، وأَبطلَ آراءَ المُتَكَلِّمِينَ، وفَنَّدَ هَرطقاتِ الباطنيَّةِ، ونَقضَ شَطحاتِ الصُّوفيَّةِ، وخاضَ غمارَ علمِ الجدلِ والمَنطقِ مُتَسلِّحاً بِالعقيدةِ

الإسلاميَّةِ الصَّافيَةِ، مُستَعيناً بِسُنَّةِ النَّبيِّ الأَعظمِ ﷺ. ودحضَ آراءَ المُتنَطِّعينَ والمُتَفَلْسِفِينَ الَّذينَ حاولوا إخضاعَ أُصولِ الدِّين، وحَقائِقِ الشَّرْعِ لأَهوائِهِمْ وأمانيهِمْ وظنونِهِم الشَّاردةِ عَنْ حقيقَةِ العقلِ والتَّنزيلِ، وهُمْ كانوا قبلَ ذَلكَ يَحسبونَ أَنَّهُمْ يُحسنونَ صُنعاً، وفي الحقيقَةِ كانوا في غفلةٍ يَعمهونَ.

لَقَدْ كانَ الفلاسفَةُ والمُتَكَلِّمُونَ قبلَهُ ـ وهُمْ يُحاولونَ التَّوفيقَ بينَ الدِّين والفَلسفَةِ ـ يَتخبطونَ في الظَّلامِ فَيُغلِّبونَ النَّظرَ عَلى الإيمانِ، ويُقَدِّمُونَ الفَلسفَةَ عَلى الدِّين، ويُساوونَ بينَ الثَّرَى والثُّريَّا، أَمَّا هوَ فَقَدْ تَعمَّقَ في العُلومِ، وعاشَ تجربَةَ الشَّكِّ مِنْ أَجلِ الوصولِ إلى العلمِ اليَقيني الَّذي يُحقِّقُ سَعادَةَ الدَّارينِ (الدُّنيا والآخرةِ). وخَرجَ مِنْ هذِهِ التَّجْرِبَةِ ظافراً مُنتَصراً بِنورٍ قَذفَهُ اللهُ في قَلبِهِ فَأضاءَ لَهُ آفاقَ العقلِ والنَّفسِ، فَنهجَ في حياتِهِ نَهجَ السَّالكينَ إلى اللهِ بِصدقٍ وإخلاصٍ، وأَكرمَهُ اللهُ بِحكمَةِ الحُكماءِ، وفطنةِ الرَّاسخينَ في العلمِ، والعلمِ بِأسرارِ الأَحكامِ الشَّرعيَّةِ، وإدراكِ رِسالَتِهِ الإصلاحيَّةِ، فَأفاضَ مِنْ ثمارِ فكرِهِ ما يُمثِّلُ مَنظومةً مِنَ العُلومِ والمَعارفِ بِمُؤَلَّفَاتهِ ومُصنَّفاتِهِ الغَنيَّةِ والهامَّةِ عَلى صَعيدِ العلمِ والدِّينِ، وها هوَ يُفصِحُ لَنا عَنْ هذِهِ التَّجْرِبَةِ الغَنيَّةِ الَّتي عاشَها في رِحلةِ العقلِ والفكرِ بينَ الشَّكِّ واليَقينِ، فَيقولُ في كتابِهِ «المُنقذِ مِنَ الضَّلالِ» بَعدَ أنْ شفاهُ اللهُ مِنْ مرضِ الفكرِ العقيمِ وهوَ عَلى مذهبِ الفلاسفَةِ:

«حَتَّى شَفَى اللهُ تَعالَى مِنْ ذَلِكَ المرضِ، وعادَت النَّفسُ إلى الصِّحةِ والاعتدالِ، ورَجعت الضَّروريَّاتُ العَقليَّةُ مَقبولَةً موثوقاً بِها عليَّ مِنْ أَمنٍ ويقينٍ، ولَمْ يَكُنْ ذَلكَ بِنظمِ دليلٍ أَو ترتيبِ كلامٍ، بَلْ بِنورٍ قَذفَهُ اللهُ تَعالَى في الصُّدورِ».

فَمَنْ هوَ الإِمَامُ حجَّةُ الإِسلامِ أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ، وأَينَ عاشَ وتَعلَّمَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ في الصَّفَحاتِ التَّالِيةِ.

❁ ❁ ❁

كانَتْ مَدينةُ «طَوس» إِحدَى كُبرياتِ مُدنِ خُراسانَ (إِيرانَ) حاليّاً، تَعجُّ بِالعُلماءِ والفُقهاءِ، ويَرتادُها طُلَّابُ العلمِ مِنَ المَناطقِ المُجاورةِ الَّذينَ يَفدونَ إِلى مَجالسِ العُلماءِ والفُقهاءِ، كما كانَ لَها تأثيرُها العلميُّ والسِّياسيُّ في بلادِ خراسانَ حينَها.

وكانَ مِنْ أَهالي «طَوس» رَجلٌ فقيرٌ يَعيشُ كفافاً يَطغَى على خُلُقِهِ الوَرَعُ والخَوفُ وتَقْوَى اللهِ، يُدعَى «مُحمَّدُ بنُ مُحمَّدٍ بنِ أَحمدَ الطَوسيُّ» يَعملُ في غزلِ الصُّوفِ (وهيَ المهنَةُ الَّتي يُنسبُ إِليها الإِمَامُ الغزاليُّ) ويَحرصُ كُلَّ الحرصِ عَلى الأَكلِ مِنْ كسبِ يَدهِ عملاً بِقولِ النَّبيِّ الأَعظمِ ﷺ: «**ما أَكلَ امرؤٌ طعاماً خيراً مِنْ كَسبِ يَدهِ**».

وكانَ «مُحمَّدٌ» هذا، إِذا فرغَ مِنْ عملِهِ، طافَ عَلى مجالسِ العُلماءِ والفُقهاءِ يَتزوَّدُ مِنَ العلمِ ما يُفَقِّهُهُ بِالدِّينِ، ولولا كبرُ سنِّهِ ومَسؤولياتُهُ في تَحصيلِ لُقمةِ العيشِ لأَهلِ بيتِهِ، لانْقطعَ إِلى مجالسِ العلمِ، ولانْشغلَ بِالسَّماعِ لِلعلماءِ والفُقهاءِ، وبِما أَنَّ ذَلكَ كانَ صَعبَ المنالِ بِالنِّسبَةِ لَهُ، كانَ يَدعو ويرجو اللهَ أَنْ يَرزقَهُ ابناً ويَجعلَهُ فَقيهاً، وما كادَ الفَلكُ يَدورُ دورتَهُ حَتَّى رَزقَهُ اللهُ ولَدينِ كانَ أَكبرُهُما «مُحمداً» حُجَّةَ الإِسلامِ.

ولِدَ حُجَّةُ الإِسلامِ «مُحمَّدُ بنُ مُحمَّدِ بنِ مُحمَّدِ بنِ أَحمدَ الطَوسيُّ» في طَوس سنةَ

(450) هجريَّةً، ونَشأَ وترعرَعَ في بيتِ أَبيهِ عَلى التَّقوَى وحُبِّ العلم، ولَمْ يَكَدْ يَفتحُ عينيهِ ويَعي عَلى الدُّنيا حَتَّى ماتَ أَبوهُ الَّذي كانَ يَأملُ أَنْ يُصبحَ ابنهُ عالماً وفَقيهاً، فاتَّجهَ حُجَّةُ الإِسلامِ إِلى التَّعلُّمِ والتَّفقُّهِ في الدِّين تَحقيقاً لرغبَةِ أَبيهِ، فقرأَ في بِدايَةِ تَحصيلِهِ العلميِّ عَلى فَقيهِ طَوس العلَّامةِ «أَحمدَ بنِ مُحمَّدِ الرَّاذكاني»، ثُمَّ سافرَ إِلى «جرجانَ» وقَرأَ عَلى الإِمامِ «أَبي نَصرٍ الإِسماعيلي»، ثُمَّ غادرَ جرجانَ إِلى مدينةِ نيسابورَ عاصمةِ الدَّولةِ السّلجوقيَّةِ ومدينةِ العلمِ بَعدَ بَغدادَ، ولازمَ فيها الإِمامَ «الجوينيَّ» إِمامَ الحرمينِ، وجَدَّ واجتهدَ حتَّى برعَ على يَديهِ في علمِ الفقهِ وأُصولِهِ، وأُعجبَ إِمامُ الحرمينِ بِعلمِ وذَكاءِ حجَّةِ الإِسلامِ، حيثُ فاقَ الغَزَالِيُّ أَقرانَهُ في مجلسِ أُستاذِهِ، وصار مُعيداً لَهُ ونائِباً عَنهُ، وكانَ إِمامُ الحرمينِ يَقولُ مادحاً علمَ تلميذِهِ وذَكاءَهُ: «الغزاليُّ بَحرٌ مُغدِقٌ».

وبَعدَ وفاةِ إِمامِ الحرمينِ سنةَ (478) هجريَّةً، غادرَ الغزاليُّ مدينةَ «نيسابورَ»، ولازمَ الوزيرَ «نظامَ المُلكِ» المُحبَّ لِلعلمِ والعُلماءِ، والَّذي كانَ مَجلسُهُ دائِمَ الاكتظاظِ بِالعُلماءِ والفُقهاءِ في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَناظرَ الغزاليُّ كبارَ العُلماءِ في مَجلسِهِ، فَغلبَهُمْ كُلَّهُم وظَهرَ علمُهُ عَلى علمِهِمْ جَميعاً، فاعترفوا بِفضلِهِ وتَفوُّقِهِ عليهِمْ، وأَلقَوا إِليهِ بِمقاليدِ العلمِ، وأَثبتوا إِمامَتَهُ فيهِ، فَدعاهُ الوزيرُ الصَّاحبُ إِلى بَغدادَ، وولَّاهُ التَّدريسَ في مَدرسَتِهِ «النِّظاميَّةِ»، وكانَ ذَلكَ غايَةَ ما يَطمحُ إِليهِ العُلماءُ في ذَلكَ الوَقتِ، فَتولَّى الإِمَامُ الغَزاليُّ وَظيفةَ التَّدريسِ في المدرسةِ «النِّظاميَّةِ» وهوَ لَمْ يَتجاوز السَّابعةَ والثَّلاثينَ مِنْ عمرِهِ بَعدُ، وكانَ ذَلكَ بِدايَةُ شُهرتِهِ، وتَداولِ أَخبارِ علمِهِ ومعارِفِهِ بينَ النَّاسِ في ذَلكَ الحينِ.

❁ ❁ ❁

في بَغدادَ، علا صيتُ الغَزاليِّ، وانتشَرتْ علومُهُ ومعارفُهُ في شَتَّى أَصقاعِ العالمِ الإِسلاميِّ عَنْ طريقِ تلامذَتِهِ الَّذينَ تَخرَّجوا على يَديهِ في المدرسَةِ «النِّظاميَّةِ»، وانتَهَتْ إِليهِ رِئاسَةُ العلمِ في العالمِ الإِسلاميِّ، وحظيَ مِنَ الخليفَةِ العبَّاسيِّ «المُقتدرِ بِاللهِ» والخليفةِ «المُستظهرِ» مِنْ بَعدهِ مكانةً ساميةً وعاليَةً، لا يُدانيهِ فيها رئيسٌ ولا وزيرٌ ولا أَميرٌ. ووَصلَ إِلى أَعلى ما يَصلُ إِليهِ عالمٌ مِنَ المجدِ والسُّؤدُدِ، وحقَّقَ في العلمِ أَعلى درجاتِهِ ومراتبِهِ، حَتَّى لُقِّبَ بِـ «حجَّةِ الإِسلامِ».

لَكنَّهُ لَمْ يَستَطِع البَقاءَ في عاصمةِ الخلافَةِ والعلمِ، على الرَّغمِ ممَّا كانَ يَنالُهُ مِنْ توقيرٍ وتَبجيلٍ واحترامٍ مِنْ ولاةِ الأَمرِ، ومِنْ عامَّةِ النَّاسِ فيها، إِذْ سُرعانَ ما راودَ الشَّكُ عقلَهُ، وغَزَت الحيرةُ نَفسَهُ، وتَضارَبَتْ في نَفسِهِ الآراءُ، ونزعَتْ بِهِ ثَقافَتُهُ الفَلسفيَّةُ الواسعةُ إِلى سبيلِ الارتيابِ، فَبدأَ يَبحثُ عن العلمِ اليَقيني الموصلِ إِلى الحقيقةِ والسَّعادةِ.

خرجَ الغزاليُّ مِنْ بَغدادَ يَطلبُ السَّعادةَ الرُّوحيَّةَ، والمعرفَةَ الحقيقيَّةِ، وقصدَ مدينةَ «دمشقَ»، وأَقامَ فيها ما يُقاربُ السَّنتينِ في عزلةٍ وخلوةٍ وانشغالٍ في رياضَةِ الرُّوحِ، وتزكيَةِ النَّفسِ على طريقَةِ الصُّوفيَّةِ، وكانَتْ إِقامتُهُ في مسجدِ دمشقَ (الجامعِ الأمويِّ)، فكانَ يَدخلُ منارةَ الجامعِ ويُغلقُ بابَها عليهِ دونَ أَنْ يَرَى أَو يراهُ أَحد.

ثُمَّ رحلَ عَنْ دمشقَ إِلى القُدسِ، فَأَقامَ في مسجدِ الصَّخرةِ في خلوةٍ وعزلةٍ وتَفكُّرٍ وبَحثٍ عَنِ السَّعادةِ الرُّوحيَّةِ، واليَقينِ العقليِّ الَّذي يَزولُ مَعهُ كُلُّ شَكٍّ أَو ارتيابٍ بِالحقائِقِ الدِّينيَّةِ الغَيبيَّةِ، ومِنَ القُدسِ رحلَ إِلى مكَّةَ لأَداءِ مناسكِ الحجِّ، ثُمَّ عاودَهُ بعدَ هذِهِ الرِّحلةِ

الَّتي دامَتْ عَشر سنواتٍ الحنينُ إِلى الأَهلِ والوطنِ، فعادَ إِلى مَدينةِ «طَوس» وفيها خرجَ مِنْ عزلتِهِ وخلوتِهِ بعدَ أنْ رزقَهُ اللهُ السَّعادةَ الرُّوحيَّةَ والعلمَ اليَقيني بِتزكيَةِ النَّفسِ ورياضَةِ الرُّوحِ عَلى طريقِ السَّالكينَ إِلى اللهِ، وعادَ إِلى سابقِ عهدِهِ في التَّعليمِ والتَّدريسِ، ثُمَّ تَولَّى رِئاسةَ المدرسةِ النِّظاميَّةِ بِنَيسابورَ، ثَمَّ اعتذرَ عنها بسبَبِ الحوادثِ السِّياسيَّةِ غيرِ المُستَقرَّةِ، وأَقامَ في طَوس، وبَنَى إِلى جانبِ دارِهِ فيها مدرسَةً لِلتَّعليمِ، وزاويَةً لِلصوفيَّةِ يزكونَ فيها أنفسَهُمْ بِالذِّكرِ والعبادةِ، وما زالَ هذا دأبَهُ حَتَّى أَدركَتْهُ الوفاةُ سنةَ (505) هجريَّةً.

❁ ❁ ❁

وهوَ يُنشدُ السَّعادةَ الحقيقيَّةَ، والعلمَ اليَقينيَّ الَّذي يزولُ معهُ كُلُّ شَكٍّ أَو ارتيابٍ، نظرَ الإِمَامُ الغَزاليُّ في أَصنافِ الطَّالبينَ (طلَّابِ المعرفةِ) حولَهُ فَوجدَهُمْ يَنحصرونَ في أَربعِ فرقٍ واتِّجاهاتٍ فكريَّةٍ وعَقائديَّةٍ: فرقَةِ المُتَكَلِّمِينَ، وفرقةِ الباطنيَّةِ، وفرقةِ الصوفيَّةِ، وطائفةِ الفلاسفةِ. وشعوراً مِنهُ بِأداءِ رسالتِهِ الإِصلاحيَّةِ، طفقَ يدرسُ كُلَّ فرقةٍ مِنهُمْ عَلى حِدة، وشرعَ في سبرِ أَغوارِها عَلَّهُ يَجدُ في إِحداها ما يَشفي غليلَهُ، ويُرضي تَطلُّعَهُ نَحوَ العلمِ اليَقيني، ولَكنَّهُ وجدَ نفسَهُ فيها جميعاً عاطلةً عَنْ بلوغِ العلمِ اليَقيني، فَصادفَ علمَ الكلامِ غيرَ وافٍ بِمقصودِهِ، وإِنَّما مقصودُهُ تَأييدُ آراءِ المُتَكَلِّمِينَ، واستخراجُ مُناقضاتِ خُصومِهِمْ، وهوَ قليلُ النَّفعِ بِجانبِ العلمِ اليَقيني.

وبَعدَ أَنْ أَحاطَ بِمقاصدِ الفلسفَةِ وكُلِيَّاتِها، وتَعمَّقَ في دراسَتِها معرفَةً واختباراً، يئسَ مِنْ أَنْ يَنالَ مِنها بُغيَتَهُ، أَو يَجدَ فيها ضالَّتَهُ، فعكفَ على نَقضِ نَظرياتِها ودحضِ آرائِها،

مُبيِّناً زَيفَها وبُطلانَها، وخاصَّةً فيما يَتعلَّقُ بِالإلهياتِ مِنها، فَوجدَ فيها نوعاً مِنَ الجدلِ العقيمِ الَّذي لا فائدةَ منهُ.

وخاضَ في غمارِ المذاهبِ الباطنيَّةِ الَّتي عظُمَ شَأنُها في عَصرِهِ، ودرسَ عقائدَها، وحلَّلَ آراءَها، ووَجدَ جُلَّ آرائِها مُستوحاةً مِنَ الفلسفاتِ اليونانيَّةِ، وكانَ فَحوَى المذهبِ الباطنيِّ: أَنَّ الإمامَ المَعصومَ القائِمَ بِالحقِّ هوَ مصدرُ العلمِ اليَقينيِّ، وإذا كانَ أَصحابُ المذاهبِ الباطنيَّةِ يَختلفونَ في تَعيينِ الإمامِ المَعصوم القائمِ بِالحقِّ، فَكيفَ يوثَقُ بِأفكارِهِمْ وآرائِهِمْ؟ يقولُ حُجَّةُ الإسلامِ: «هذِهِ حقيقَةُ حالِهِمْ، فَلمَّا خَبرناهُمْ نَفَضنا اليَدَ مِنهُمْ أَيضاً».

ثُمَّ اقتحمَ لُجَجَ مذهبِ أَهلِ التَّصوُّفِ، وعملَ عَلى تَحصيلِ علمِهِمْ، فوجدَ أَنَّهُمْ يَعتمدونَ عَلى الأَحوالِ أكثرَ مِنِ اعتمادِهِمْ عَلى العلمِ، وظهرَ لَهُ أَنَّ أَخصَّ خَواصِّهِمْ لا يُمكنُ الوصولُ إِليهِ بِالتَّعلُّمِ، بَلْ بِالذَّوقِ والحالِ وتَبدُّلِ الصِّفاتِ، يَقولُ عَنهُمْ: «فعلمتُ يَقيناً أَنَّهُمْ أَربابُ الأَحوالِ لا أَصحابَ الصِّفاتِ»، وراقت لَهُ مِنْ مذهبِهِمْ طريقَتُهُمْ في تزكيَةِ النَّفسِ، ورياضَةِ الرُّوحِ، والزُّهدِ بِالدُّنيا، ولِهذا مالَ إِلى مذهبِهِمْ في هذا الاتِّجاهِ، وظهرَتْ فيهِ نزعاتُ التَّصوفِ الأَخلاقيَّةِ والنَّفسيَّةِ، لا التَّصوُّفَ العقائديَّ الَّذي يقومُ عَلى الأَحوالِ وتَبدُّلِ الصِّفاتِ، وكانَ مِنْ أَثرِ هذِهِ النَّزعةِ تأليفُهُ لِكتابِ «إِحياءِ علومِ الدِّين» وكتابِ «المُنقذِ مِنَ الضَّلالِ» وغيرِهِما.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَكُنْ حُجَّةُ الإسلامِ داعيَةً ومُصلِحاً في عَصرِهِ فَقَطْ، وإِنَّما تَجاوزَ عَصرَهُ لِيُصبِحَ

بِفضلِ مُؤَلَّفَاتهِ داعيَةَ الإِسلامِ، ومُصلحَ المُجتمعاتِ في كُلِّ عَصرٍ وآنٍ، ولِيكونَ مُربياً لِلأَجيالِ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ.

ويَرَى بَعضُ الباحثينَ المُعاصرينَ أَنَّ لأَهميَّةِ مُؤَلَّفَاتهِ، وفَضلِها في تَهذيبِ وتَربيَةِ النَّشءِ، وتَقويمِ اعوجاجِ المُجتمعِ، وإِصلاحِ ما قَدْ يَفسدُ مِنَ الأَخلاقِ في كُلِّ عَصرٍ وجيلٍ، عَمدَ بَعضُ المُستشرقينَ إِلى إِثارةِ الشُّكوكِ حولَ صِحَّةِ نسبَةِ بَعضِ تلكَ المُؤَلَّفَاتِ الهامَّةِ إِليهِ، وأَنَّهُ يَخلطُ بينَ عُلومِ الدِّين والفَلسفَةِ فيها، وأَنَّها لا تُصلحُ أَنْ تكونَ مصدراً لِلأَخلاقِ والتَّربيَةِ، وذَلكَ مِنْ أجلِ فَصلِ الجيلِ المُؤمنِ عَنْ منابعِ تُراثِهِ العلميِّ والثَّقافيِّ والتَّربويِّ.

ومعَ ذَلكَ بَقيَ أَبناءُ الأُمَّةِ يَعتبرونَ مُؤَلَّفَات الغَزاليِّ مِنْ أهمِّ المَصادرِ الَّتي يَنبغي الرُّجوعُ إِليها في أُمورِ الأَخلاقِ والتَّربيَةِ والتَّعليمِ والتَّهذيبِ.

يَقولُ أَحدُهُمْ: «إِنَّ مُؤَلَّفَات الإِمامِ الغزاليِّ تَكشفُ عَنْ عَبقريَّتِهِ وموسوعيَّتِهِ ومُعالَجتِهِ الشُّموليَّةِ لِحاجاتِ المُسلمينَ، والحضارةِ الإِسلاميَّةِ، فَقَدْ نَذرَ الرَّجلُ نَفسَهُ لِلمُسلمينَ وأَدركَ أَنَّهُ عَلى رأسِ المئة الخامسَةِ مُجدِّدٌ لِهذا الدِّين ـ كما قالَ الإِمامُ الذَّهبيُّ ـ فَكتبَ في مُختلفِ أَبوابِ المعرفَةِ الإِنسانيَّةِ، وصَنَّفَ أُمهاتِ الكُتبِ في مُختلفِ المَواضيعِ، وأجادَ في الفقهِ الاجتماعيِّ والحضاريِّ».

ويُمكنُنا إِجمال أهمِّ مُؤَلَّفَاتهِ عَلى النَّحوِ التَّالِي:

أولاً: في الفلسفةِ: «كتابُ تَهافُتِ الفلاسفةِ»: وهوَ الكتابُ الَّذي نَقدَ فيهِ الفَلسفَةَ، وكفَّرَ فيهِ الفَلاسفَةَ، وأَبدعَ فيهِ أَيَّما إِبداعٍ.

و«كتابُ مَقاصدِ الفلاسفَةِ»: وهوَ كتابٌ في علمِ الفلسفةِ ومقاصدِها، وكانَ مرجعاً للغربيينَ في دراسَةِ الفَلسفَةِ.

و«كتابُ المُنقذِ مِنَ الضَّلالِ»: وهوَ كتابٌ هامٌّ في الفلسفَةِ اللاهوتيَّةِ، منهُ نَهلَ كبارُ الفلاسفَةِ الغربيينَ كتوما الأكويني وغيرِهِ.

ثانياً: في الفقهِ وأُصولِهِ: «كتابُ البَسيطِ» و«كتابُ الوَسيطِ» وهُما في الفقهِ الشَّافعيِّ، ذَكرَهُما الإمامُ السُّبكيُّ في كتابِهِ طبقاتِ الشَّافعيَّةِ.

و«كتابُ المُستَصفَى» في أُصولِ الفقهِ، وهوَ أحدُ منابعِ ودعائِمِ علمِ أُصولِ الفقهِ إِلى يَومِنا هذا.

ثالثاً: في الأخلاقِ وعلمِ النَّفسِ والاجتماعِ: «كتابُ إِحياءِ علومِ الدِّين» في أَربعةِ أجزاء كبيرةٍ، وهوَ الموسوعةُ العلميَّةُ المَشهورةُ، أَشهرُ مِنْ أنْ يُعرَّفَ بِهِ، كَتبَهُ لِيُجدِّدَ لِهذِهِ الأُمَّةِ دينَها ويُعيدَها إِلى سيرةِ السَّلفِ الصَّالحِ، وبِهِ استَّحقَّ أنْ يَكونَ مُجدِّدَ القرنِ الخامسِ الهجريِّ كما قالَ الإِمَامُ الذَّهبيُّ، وقَدْ اختصرَهُ عَددٌ كبيرٌ مِنَ العُلماءِ مِنهُمُ ابن الجوزيِّ، وشرحَهُ العلَّامةُ مُرتَضَى الزَّبيديُّ وأَسماهُ «إِتحافَ السَّادةِ المُتَّقينَ بِشرحِ علومِ الدِّين».

و«كتابُ كيمياءِ السَّعادةِ» وهوَ في علمِ النَّفسِ والأَخلاقِ والسُّلوكِ، يُقابلُ كتابَ إِحياءِ علومِ الدِّين.

وكتابُ «ميزانِ العملِ» وهوَ في الأخلاقِ العمليَّةِ.

و«كتابُ أَيُّها الولدُ» وهوَ في الأَخلاقِ وآدابِ السُّلوكِ وعلمِ النَّفسِ والتَّربيَةِ. وقَدْ شَرحَهُ العُلماءُ عدَّةَ شُروحٍ واختصرَهُ بَعضُهُمْ.

هذا إلى جانبِ مُؤَلَّفَات أُخرَى في مُختلفِ المواضيعِ يَضيقُ المقامُ عَنْ ذكرِها هُنا، ولَكنْ تجدرُ الإِشارةُ إِلى أَنَّ مُؤَلَّفَات الغزاليِّ أَغلبُها تُرجمَ إِلى عدَّةِ لُغاتٍ، وتُدرَّسُ في أَعرقِ جامعاتِ الشَّرقِ والغربِ.

الأَسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا وجَّهَ الإِمَامُ الغزالي إِلى علمِ الفلسفَةِ؟

2 ـ بِماذا تَميَّزَ الإِمَامُ الغزالي عَنِ الفلاسفةِ والمُتَكَلِّمِينَ قَبلَهُ؟

3 ـ كيفَ كانَتْ مدينةُ طوس الَّتي ولدَ فيها الإِمَامُ الغزالي؟

4 ـ ماذا كانَ يعملُ والدُ الإِمامِ الغزالي، وعلى ماذا كانَ يحرصُ؟

5 ـ ماذا قالَ إِمامُ الحرمينِ في حَقِّ الإِمامِ الغزاليِّ؟

6 ـ لِماذا لَمْ يَستَطِع الإِمامُ الغزالي البَقاءَ في بَغدادَ؟

7 ـ كيفَ وجدَ الإِمامُ الغزاليُّ الفلاسفةَ وأَهلَ الباطنِ؟

8 ـ لِماذا يُحاولُ المُستشرقونَ التَّشكيكَ بِمُؤَلَّفَات الغزالي؟

الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجَيلانيُّ
إمامُ العارِفِينَ رضي الله عنه
(470 ـ 561هـ)

الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ، إمامُ العارفينَ، وصاحبُ الجَنابِ الرَّفيعِ، المُؤيَّدُ بالكراماتِ والأَحوالِ النُّورانيَّةِ مِنَ اللهِ السَّميعِ البَصيرِ، مِنْ عُلماءِ المُسلمينَ الَّذينَ عَرجوا بِعلمِهِمْ وعَملِهِمْ إلى المَقاماتِ العَليَّةِ، وسَعِدوا بِحالةِ القُربِ والوصالِ الدَّائِمِ معَ السَّماءِ، فَأَفاضَ اللهُ عليهِ مِنْ فيوضاتِ رَحمتِهِ، وأَنعمَ عليهِ مِنْ بَركاتِهِ ما كَشفَ لَهُ حجابَ البَصرِ والبَصيرَةِ، فَسعَى في الأَرضِ عَلى طريقَةِ الأَنبياءِ والعُلماءِ الرَّبانيينَ، العاملينَ في دعوةِ العبادِ إلى الهدايَةِ والرَّشادِ.

اجتهدَ هذا الشيخُ في إصلاحِ القُلوبِ المَيتةِ الخربَةِ، وزرعَ في جَنباتِها الخوفَ والخشيَةَ مِنَ اللهِ، في وقتٍ كانَ العبادُ فيهِ أَحوجَ ما يَكونونَ إلى عالم لِلعقلِ والقلبِ مَعاً يَرشدُهُمْ إلى نورِ الهِدايَةِ والإيمانِ، ويُزَكِّيهِمْ ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ، في مُجتمعٍ تَلاعَبَتْ بِهِمْ فيهِ الأَهواءُ والشَّهواتُ، وتَلاطمَتْهُمْ فيهِ ظُلماتُ الجَاهِلِيَّةِ الجَهلاءِ، وغَزا قُلوبَهُمْ فيهِ، حبُّ المالِ والجاهِ، فَقدَّسوا الأَشخاصَ والحُكَّامَ كَتقديسِ المُشركينَ والكُفَّارِ

لِلأَوثانِ والأَصنامِ، وتَهافَتوا عَلى أَبوابِ السَّلاطِين والأُمراءِ والأَغنياءِ، وهَجروا الوقوفَ عَلى عَتباتِ السَّماءِ واستجداءَ العَونِ مِنَ اللهِ ذي اليدِ المعطاءِ.

وَسطَ هذا الخِضَمِّ الَّذي تَعصفُ فيهِ ظُلماتُ النِّفاقِ، وقفَ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ الجيلانيُّ يوقظُ العُقولَ والقلوبَ مِنْ سُباتِها، ويَحفزُ الهِمَمَ لِلعودةِ إِلى رِحابِ الإِيمانِ، وإِلى ملاذِ الإِسلامِ المُتمثِّلِ بِالمَنهجِ الرَّبانيِّ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ويدعو إِلى اللهِ، ويُصلح في النَّاسِ والحياةِ، وهوَ مؤمنٌ أَنَّ مَنْ يَحملُ مشعلَ الهدايَةِ والدَّعْوَةِ والإِصلاحِ بِصدقٍ وإِخلاصٍ سَوفَ يَكونُ النَّجاحُ والتَّوفيقُ حليفَهُ بِإِذنِ اللهِ الواحدِ المنَّانِ.

كما أَثمرَتْ جُهودُ الشَّيْخِ عَبدِ القادرِ الجيلانيِّ في نفوسِ غيرِ المُسلمينَ، وانتشَرَتْ دَعوتُهُ بين صَفوفِ اليَهودِ والنَّصارَى، فَأَقبلوا يَدخلونَ في دينِ اللهِ أَفواجاً، بَعدَ أَنْ أَدركوا أَنَّ الإِسلامَ هوَ الدِّيْنُ الحقُّ، وأَنَّهُ خاتمُ أَديانِ السَّماءِ، فَكانَ لا يَخلو مجلسُ إِمامِ العارفينَ مِنْ وافدٍ جديدٍ إِلى دينِ اللهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ.

ولَمْ تَقتصرْ حَركةُ إِمامِ العارفينَ الإِصلاحيَّةُ عَلى الجانبِ الدِّيني فَقَطْ، وإِنَّما أَصابَتْ بِإِشراقِها ونورِها الجانبَ الاجتماعيَّ أَيضاً، وأَحدَثَتْ تَأثيراً عَظيماً في فئاتِ المُجتمعِ وطَبقاتِهِ، فَزالَتِ الطَّبقيَّةُ بينَ النَّاسِ، وتَهدَّمَتِ الفَجوةُ الَّتي كانَتْ بينَ الحاكمِ والمَحكومِ، وتَلاقَتِ القلوبُ عَلى مَحبَّةِ الشَّيْخِ إِمامِ العارفينَ، فَكانَ الجميعُ يَجلسونَ إِليهِ جُلوسَ التِّلميذِ المُتطلِّعِ إِلى نَصائِحِ أُستاذِهِ المُشفقِ الأَمينِ، وقَدْ زالَتْ مِنْ بينِهِمْ كُلُّ أَسبابِ التَّمييزِ الطَّبقيِّ، وكُلُّ أَعرافِ الجَاهِلِيَّةِ الجَهلاءِ الَّتي أَيقَظَتْها حياةُ البَذخِ والتَّرفِ، والولاءُ لِغيرِ اللهِ ﷻ.

لَقَدْ جَدَّدَ إِمامُ العارفينَ الصِّلةَ بينَ الأَرضِ والسَّماءِ، وقَضَى حياتَهُ في تَعميرِ القُلوبِ بِمحبَّةِ اللهِ ﷻ ورَسولِهِ ﷺ وفي إِصلاحِ العلاقَةِ بينَ الخالقِ والمَخلوقِ مُذكِّراً النَّاسَ بِوجوبِ طاعةِ عَلَّامِ الغُيوبِ واتِّباعِ هَديِ الرَّسُولِ، فَدوَّنَ التَّاريخُ اسمَهُ في سِجلِّ المُصلحينَ الخالدينَ، والدَّاعِينَ إِلى رَبِّهِمْ بِالحكمةِ والمَوعظةِ الحَسَنةِ.

❁ ❁ ❁

هوَ الشَّيْخُ الرَّبانيُّ، والهيكلُ الصَّمدانيُّ، القطبُ الأَعظمُ، والغَوثُ الفَردُ الأَفخمُ، أَبو مُحمَّدٍ محيي الدِّينِ عبدُ القادرِ ابنُ أَبي صالحٍ بنِ أَبي عبدِ اللهِ بنِ يَحيَى الزَّاهدِ بنِ مُحمَّدِ بنِ داؤدَ بنِ موسَى بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسى الجَونِ بنِ عبدِ اللهِ المَحضِ بنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بنِ الإِمامِ الحَسنِ المُجتَبَى بنِ أَميرِ المُؤمنينَ علي بنِ أَبي طالبٍ ﷺ، المُلَقَّبُ بِالجيلانيِّ نسبَةً إِلى بَلدتِهِ «جيلانَ»، وهيَ مقاطعةٌ مِنْ بِلادِ فارس كانَ يُقالُ لَها بِلادُ الدَّيلمِ ـ ويُقالُ لَجيلانَ: كيلانَ أَيضاً ـ وهيَ مِنْ أَجملِ بِلادِ فارس، وعُرفَ أهلُها بِولائِهِمْ لآلِ البيتِ.

فَهوَ مِنَ الأُسرةِ الهاشميَّةِ الكريمةِ، وفَرعٌ مِنْ فُروعِ الدَّوحةِ المُحمديَّةِ العليَّةِ، ومِنَ الآلِ الطاهرِ الَّذي حباهُ اللهُ تَشريفاً وتَكريماً، ومِنْ أَكابرِ أَولياءِ اللهِ تَعالَى الَّذينَ نالوا مِنهُ الوَفاءَ والكرامَةَ، ومِنْ مُحبيهِ المُقتَدَى بِهِمْ في جمالِ الأَخلاقِ، وسَطعَ نورُ كمالِهِ، وأَشرَقَتْ شَمسُ صِفاتِهِ، وتَواترَتْ كَراماتُهُ وكَلماتُهُ، وانعَقَدَ الإِجماعُ عَلى ولايَتِهِ.

قالَ الشَّيْخُ موفَّقُ الدِّين صاحبُ «المُغني»: «لَمْ أسمَعْ عَنْ أَحدٍ يُحكَى عَنهُ مِنَ الكراماتِ أَكثرَ مِمَّا يُحكَى عَن الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، وذَكرَ الشَّيْخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: إِنَّهُ لَمْ

تَتَواترْ كراماتُ أَحد مِنَ المشايخ إِلَّا الشَّيْخَ عَبدَ القادرِ، فَإِنَّ كراماتِهِ نُقلِتْ بِالتَّواترِ»[1].

ويَذكرُ الإِمَامُ الأَلوسيُّ، صاحبُ التَّفسيرِ الشَّهيرِ في كتابِهِ «جلاءِ العينينِ» عَنْ شَيخِ الإِسلامِ «ابن تَيميَّةَ» ما يُؤيِّدُ هذا الكلامَ عَنْ كراماتِ وولايةِ إِمامِ العارفينَ.

ويَذكرُ «اليافعيُّ» في كتابِهِ «مرآةِ الجنانِ وعبرةِ اليَقظانِ» عَنْ جَدِّ، وأُمِّ، وعَمَّةِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، فَيقولُ: «وأُمُّهُ أُمُّ الخيرِ، أَمَةُ الجَبَّارِ، فاطمةُ بنتُ أَبي عبدِ اللهِ الصَّومعيِّ رضي الله عنهم (الزَّاهدِ المعروفِ)، وكانَ لَها حَظٌّ وافرٌ مِنَ الخيرِ والصَّلاحِ، والصَّومعيُّ مِنْ جُملةِ مَشايخِ جيلانَ ورُؤساءِ زُهادِهِمْ، ولَهُ الأَحوالُ والكراماتُ الجليَّةُ، وأَخوهُ الشَّيْخُ أَبو أَحمدَ عَبدُ اللهِ ـ سِنُّهُ دونَ سِنِّهِ ـ نشأَ نُشوءاً صالحاً في العلمِ والخبرةِ، وعَمَّتُهُ (عمَّةُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ) المرأةُ الصَّالحةُ أُمُّ مُحمَّدٍ عائِشَةُ بنتُ عبد اللهِ ذاتُ الكراماتِ الظَّاهرةِ».

رويَ أنَّ بِلادَ جيلانَ أَجدَبَتْ مرَّةً، واسْتَسقَى أَهلُها، فَلَمْ يُسقَوا، فَأَتَى المَشايخُ إِلى دارِ الشَّيخةِ عائشَةَ المَذكورةِ، وسَأَلوها الاستسقاءَ لَهُمْ. فَقامَتْ إِلى رحبةِ بيتِها، وكَنَّسَت الأَرضَ، وقالَتْ:

يا رَبُّ.. أَنا كَنَّستُ، فَرُشَّ أَنتَ. قالَ: فَلَمْ يَلبَثوا أَنْ مَطرَتِ السَّماءُ كَأَفواهِ القُرَبِ، فَرَجعوا إِلى بيوتِهِمْ يَخوضونَ في الماءِ.

وأَمَّا صِفةُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، فَرُويَ: أَنَّهُ كانَ نَحيفَ البَدنِ، رِبعَ القامةِ، عَريضَ

---

(1) قلائد الجواهر للكيلاني ص 9 ـ 10.

الصَّدرِ، عريضَ اللِّحيَةِ وطويلَها، أَسمرَ مقرونَ الجبينِ، أَدعجَ العينينِ، ذا صوتٍ جَهوريٍّ، وسَمتٍ بَهيٍّ، وقَدرٍ عليٍّ، وعلمٍ وفيٍّ.

ولِدَ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ الجيلانيُّ في جيلانَ سنةَ (470) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها وعاشَ وسَطَ هذا الجوِّ الإِيمانيِّ الَّذي تَشُعُّ مِنهُ أَنوارُ العِلمِ والعرفانِ، ولَمَّا بَلغَ الثامنةَ عشرَ مِنْ عُمرِهِ تَوجَّهَ إِلى بَغدادَ طَلباً لِلعلمِ، وتَحصيلاً لِلمعرفَةِ العَقليَّةِ والقَلبيَّةِ مَعاً.

❁ ❁ ❁

عَكفَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ عَلى مُلازمةِ مجالسِ العُلماءِ في بَغدادَ، فَتتلمذَ في اللُّغةِ وعُلومِها عَلى أَبي زكريا التَّبريزيِّ المعروفِ بِالخَطيبِ الَّذي كانَ أَحدَ أَئمَّةِ اللُّغةِ في عَصرِهِ، وفي الفقهِ عَلى إِمامِ فُقهاءِ الحنابلةِ وصاحبِ التَّصانيفِ المُشتهرةِ أَبي الوفاءِ عليِّ بنِ عقيلٍ البَغداديِّ المُظَفريِّ.

وفي الحديثِ تتلمذ عَلى كبيرِ مُحدِّثي عَصرِهِ أَبي غالبٍ مُحمَّدِ بنِ الحسنِ الباقلَّاني. وفي علمِ التَّصوفِ والحقيقَةِ عَلى شَيخِ شيوخِ الطُّرقِ السَّنيةِ صاحبِ المَقاماتِ العَليَّةِ أَبي عَبدِ اللهِ حمَّادِ بنِ مُسلمِ الدَّبَّاسِ، ثُمَّ أَكملَ الطَّريقَةَ وعلمَ الحقيقَةِ عَلى يَدِ القاضي والفَقيهِ أَبي سَعيدٍ المُباركِ بنِ عليٍّ المخرَّمي، وأَخذَ عَنهُ الإِجازةَ فيها.

وبعدَ إِتمامِهِ دراسَتَهُ العلميَّةَ والرُّوحيَّةَ، جلسَ لِلتدريسِ والوَعظِ والإِرشادِ في مَدرسَةِ شَيخِهِ أَبي سَعيدٍ المخرَّمي، فَلمعَ صيتُ إِمامِ العارفينَ العلميُّ، وعَلا ذِكرُهُ بينَ العُلماءِ، وفُوِّضَ إِليهِ أَمرُ مَدرسَةِ شَيخِهِ المخرَّميِّ، فَعملَ عَلى تَوسيعِها، وعَلى تَنويعِ الدِّراسَةِ فيها،

فَاسْتَقطبَ بِذلِكَ طلبَةَ العلمِ مِنْ جميعِ أَنحاءِ العالمِ الإِسلاميِّ، كما جذبَ إِليها كبارَ العُلماءِ والأَعيانِ، وانتَهَتْ إِليهِ الرِّئاسَةُ الرُّوحيَّةُ والدينيَّةُ والعلميَّةُ في البِلادِ، وتَهافَتَ النَّاسُ عَلى مَجلسِهِ العلميِّ الَّذي كانَ يُلقي فيهِ دروسَ العلمِ والطَّريقَةِ، وتَزاحمَ الخلقُ عَلى حلقَاتِ الذِّكرِ الَّتي كانَ يَعقدُها بِشَكلٍ يَوميٍّ، وشاعَتْ عَنهُ الطَّريقَةُ القادريَّةُ المعهودةُ في الذِّكرِ والتَّعبُّدِ، والتَّربيَةِ الرُّوحيَّةِ والخُلقيَّةِ، وصارَ لَهُ فيها تَلاميذُ وأَتباعٌ مِنَ الأَعيانِ والعُلماءِ، وانتشَرَتْ عَنهُ هذِهِ الطَّريقَةُ في مُختلفِ أَصقاعِ العالمِ الإِسلاميِّ، ولَمْ يَزَلْ لَها أَشياعٌ وأَتباعٌ إِلى يَومنا هذا في كُلِّ مَصرٍ ومَدينةٍ وقَريةٍ، كما لا يَزالُ لَها أَثرُها الفعَّالُ في التَّربيَةِ الرُّوحيَّةِ والتَّهذيبِ الأَخلاقيِّ، وكَذَلِكَ في جَذبِ وتَشجيعِ النَّاسِ إِلى التزامِ طَريقِ الهدايَةِ والرَّشادِ.

وكَما يُصوِّرُ المُؤَرِّخُونَ عَنْ إِمامِ العارفينَ، أَنَّهُ استطاعَ بِجهدِهِ في العلمِ والعبادةِ أَنْ يُعيدَ لِلدِّينِ هَيبَتَهُ في قُلوبِ العبادِ، وأَنْ يُشعلَ مَحبَّةَ اللهِ في نُفوسِهِمْ، وأنْ يَجمَعَهُمْ عَلى طاعَةِ اللهِ في مجلسِهِ، ويُوحِّدَ صُفوفَهُمْ في الحياةِ عَلى نُصرةِ الإِسلامِ، وتَعظيمِ شَعائِرِ اللهِ وسُنَنِ الإِسلامِ.

ويَذكُرُ «الشّعرانيُّ» في «الطَّبقاتِ الكُبرَى»: أَنَّهُ «كانَ يَحضرُ مَجالِسَهُ في بَعضِ الأَحيانِ الخَليفَةُ والمُلوكُ والوزراءُ، فَيجلسونَ مُتأَدبينَ خاشعينَ، أَمَّا العُلماءُ والفُقهاءُ فَلا يَأتي عليهِمْ حَصرٌ، وقَدْ عُدَّ في بَعضِ مَجالِسِهِ أَربعمئة محبَرَةٍ».

كما أَكَّدَ غيرُهُ مِنَ المُؤَرِّخِينَ: أَنَّهُ لَمْ يُرَ في عَصرِهِ أَحدٌ يُعظَّمُ مِنْ أَجلِ الدِّين أَكثرَ مِنهُ.

❋ ❋ ❋

لا ريبَ أنَّ الشَّيخَ عَبدَ القادرِ الجيلانيَّ، لَمْ يَتبوأْ هذِهِ المَنزلَةَ العاليَةَ الرَّفيعةَ، ولَمْ يُحرزْ تِلكَ المَقاماتِ العَليَّةَ والكراماتِ السَّنيَّةَ، لَو لَمْ يَكُنْ جَمَّاعاً في شَخصِهِ وسُلوكِهِ لِلصفاتِ الحَسنَةِ، والخلالِ الحميدةِ المَحمودةِ عِندَ اللهِ والنَّاسِ، فَكانَ عَملُهُ عَملَ الأَنبياءِ الكرامِ، وسَمتُهُ سَمتَ المَلائِكةِ الأَبرارِ، ودَأبُهُ دأبَ الصَّالِحِيْنَ الأَخيارِ، وهِمَّتُهُ هِمَّةَ المُصلحينَ الأَنجابِ، هذا ما عَهدَهُ عليهِ مُعاصروهُ، ونَقلَهُ لاحِقوهُمْ إلينا، فَهذا الإِمَامُ الشّعرانيُّ يَذكرُ في طَبقاتِهِ الكُبرَى، وصفاً لِسلوكِ إمامِ العارفينَ عَلى لِسانِ أَحدِ مَنْ عاصروهُ، فيقولُ:

«ما رأتْ عَيناي أَحسنَ خُلُقاً، ولا أَوسعَ صدراً، ولا أَكرمَ نَفساً، ولا أَلطفَ قَلباً، ولا أَحفظَ عهداً ووداً، مِنْ سَيِّدِنا الشَّيْخِ عَبدِ القادرِ، ولَقَدْ كانَ ـ معَ جلالِ قَدرِهِ وعُلوِّ مَنزلَتِهِ وسِعَةِ علمِهِ ـ يَقفُ معَ الصَّغيرِ، ويُوقِّرُ الكبيرَ، ويَبدأُ بِالسَّلامِ، ويُجالسُ الضُّعفاءَ، ويَتواضَعُ لِلفُقراءِ، وما قامَ لأَحدٍ مِنَ العُظماءِ ولا الأَعيانِ، ولا أَلَمَّ بِبابِ وزيرٍ ولا سُلطانٍ».

وهذا صاحبُ كتابِ «قلائِدِ الجواهرِ» يَذكُرُ عَن الإِمامِ الحافظِ أَبي عبدِ اللهِ البرزالي الإِشبيليِّ قَولَهُ: «كانَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ مُجابَ الدَّعْوَةِ، سَريعَ الدَّمعَةِ، دائِمَ الذِّكرِ، كثيرَ الفِكرِ، رَقيقَ القلبِ، دائِمَ البِشرِ، كريمَ النَّفسِ، سَخيَّ اليَدِ، غَزيرَ العِلمِ، شَريفَ الأَخلاقِ، طَيِّبَ الأَعرافِ، معَ قَدمٍ راسخٍ في العبادةِ والاجتهادِ».

وكَأَنَّ إِمامَ العارفينَ بِصفاتِهِ وأَخلاقِهِ، يَرسمُ مَنهجاً قَويماً لِلسالكينَ إِلى اللهِ في مُختلفِ

العُصورِ، وفي كافَّةِ الأَجيالِ المُتعاقبةِ، فَيذكرُ صاحبُ كتابِ «قلائِدِ الجواهرِ» في موضعٍ آخَرَ مِنْ كتابِهِ فَيقولُ:

«كانَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ يَأمرُ كُلَّ ليلَةٍ بِمدِّ السّماطِ، ويَأكلُ معَ الأَضيافِ، ويُجالسُ الضُّعفاءَ، ويَصبرُ عَلى طلبَةِ العلمِ، لا يَظنُّ جليسُهُ أَنَّ أَحداً أَكرمُ عليهِ مِنهُ، ويَتفقَّدُ مَنْ غابَ مِنْ أَصحابِهِ، ويَسأَلُ عَنْ شَأنِهِمْ، ويَحفظُ ودَّهُمْ، ويَعفو عَنْ سَيئاتِهِمْ، ويُصدِّقُ مَنْ حلفَ لَهُ، ويُخفي علمَهُ فيهِ».

وكانَ مُغرَماً ﷺ بِالإِنفاقِ في سبيلِ اللهِ مِنْ فُضولِ مالِهِ، وفي مواساةِ الفُقراءِ والمُحتاجينَ، وإِطعامِ الجائِعينَ، وكانَ يَقولُ: «فَتَّشتُ الأَعمالَ كُلَّها فَما وجدتُ فيها أَفضلَ مِنْ إِطعامِ الطَّعامِ، ولا أَشرفَ مِنَ الخُلقِ الحَسنِ، أودُّ لو كانَت الدُّنيا بِيَدي لأَطعَمتُها الجائِعَ».

وكَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُنَبِّهَ الأَذهانَ إِلى أَبرِّ فَضائِلِ الأَبرارِ الَّذينَ يُحبونَ اللهَ ويَخافونَ يومَ الحسابِ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 8 ـ 10].

❁ ❁ ❁

ومِنْ أَعظمِ كراماتِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، ومِنْ أَكثرِها قُوَّةً وتَأثيراً عَلى حياةِ العبادِ والبِلادِ، إِحياؤُهُ لِلنُّفوسِ المَيتَةِ عَلى طاعةِ اللهِ ﷻ، وإِيقاظُهُ لِلقلوبِ المريضَةِ الخَربَةِ عَلى مَحبَّةِ اللهِ ﷻ.

ولَقَدِ اجتاحَتِ العالمَ الإسلاميَّ ـ بَفضلِ مواعظِهِ وإرشادهِ ودعوتِهِ ـ موجَةٌ عارمةٌ مِنَ النَّسائِمِ الرُّوحانيَّةِ، والنَّفحاتِ الإيمانيَّةِ، أَعادَتْ إلى الأَذهانِ صَفحاتٍ عَطرةً مِنْ تاريخِ الرَّعيلِ الأَوَّلِ مِنَ المُسلمينَ الَّذينَ اتَّبعوا الرَّسولَ ﷺ، وعَبدوا اللهَ بِإحسانٍ وإخلاصٍ، فَقَدْ مَشَتْ إليهِ بَغدادُ بِركابِها وعُلمائِها وشُيوخِها وحُكَّامِها، وسَارَتْ إليهِ جُموعُ المُحبينَ مِنْ جَميعِ أَصقاعِ مَملكَةِ الإسلامِ، وأَلقَتْ عَلى بابِهِ مَقاليدَ الزَّعامةِ الدِّينيَّةِ والرُّوحيَّةِ في العالمِ الإسلاميِّ، وكيفَ لا؟ وهوَ الَّذي كانَ يَجتمعُ في مَجلسِهِ سَبعونَ أَلفَ مُريدٍ ما بينَ قاعدٍ وواقفٍ وراكبٍ! حَتَّى جَعلَ مَجلسَهُ ـ بِسببِ ضيقِ المَكانِ ـ بِظاهرِ البَلدِ، وكانَ النَّاسُ يَسيرونَ إليهِ في اللَّيلِ عَلى الشَّمعِ والمَشاعلِ والسُّرجِ، وأَصبَحَتْ مَدينَةُ بَغدادَ عامرةً بِالنَّاسِ يَروحونَ ويَجيئونَ، وفي حركةٍ دائِبةٍ مِنَ المعاشِ في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وصَوتُ الشَّيْخِ إمامِ العارفينَ يَصدحُ في آفاقِها داعياً العِبادَ إلى مَزيدٍ مِنْ طاعةِ اللهِ ومَحبَّتِهِ.

وفي «قَلائِدِ الجواهرِ» عَن الشَّيْخِ عُمرَ الكيسانيِّ ـ وكانَ مُعاصراً لِإمامِ العارفينَ وتلميذاً لَهُ ـ قالَ: «لَمْ تَكُنْ مَجالسُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ رضي الله عنه تَخلو مِمَّنْ يُسلمُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، ولا مِمَّنْ يَتوبُ مِنْ قُطَّاعِ الطَّريقِ، وقاتلي النَّفسِ، وغيرِ ذَلكَ مِنَ الفُسَّادِ، ولا مِمَّنْ يَرجعُ عَنْ مُعتقدِ شَيءٍ».

ويَحكي الشَّيْخُ «الجبائيُّ» ـ وهوَ غيرُ المُتكلمِ المَشهور ـ ما قالَهُ لَهُ إمامُ العارفينَ عندما أَعياهُ السِّنُّ قُبيلَ موتِهِ: «قالَ لي سَيِّدُنا الشَّيْخُ: (أَتَمنَّى أنْ أَكونَ في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأَوَّلِ، ولا أَرَى الخلقَ ولا يَروننِي)، ثُمَّ قالَ: (أَرادَ اللهُ مِنِّي مَنفعةَ الخَلقِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَسلمَ عَلى يَدي أَكثرُ مِنْ خَمسةِ آلافٍ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، وتابَ عَلى يَدي مِنَ

العَيارينَ والمُسالحةِ ﷺ - وهمْ أَهلُ السِّلاحِ مِنْ قطاعِ الطُّرقِ وأَشباهِهِمْ - أَكثرُ مِنْ مئةِ أَلفٍ، وهذا خيرٌ كَثيرٌ)».

كما كانَ إِمامُ العارفينَ عالِماً حَصيفاً بِأَحكامِ الشَّريعةِ، وعلومِ السُّنَّةِ الشَّريفةِ، ومُقلداً لِمذهبِ الإِمامِ أَحمدَ بنِ حنبل، وكانَتْ طَريقَتُهُ في التَّوحيدِ ظاهراً وباطناً، ووَصفاً وحكماً وحالاً، ويَرَى الخروجَ عَنْ أَحكامِ الشَّرْعِ، أَو الشّطوحَ عَنها بِدواعي وحجَجٍ واهيَةٍ كما يَفعلُ بَعضُ أَصحابِ الطريقَةِ مِنَ المَجذوبينَ أَو الفرقِ الباطنيَّةِ أَو أهلِ البِدعِ، زَندقَةً وخروجاً عَنِ الدِّين، فَكانَ يَأمرُ أَصحابَهُ ويَقولُ لَهُمْ: «اتَّبعوا ولا تَبتَدعوا، وأَطيعوا ولا تُخالفوا».

ومِنْ أَقوالِهِ: «كُلُّ حقيقَةٍ لا تَشهدُ لَها الشَّريعةُ فَهيَ باطلةٌ. وتركُ العباداتِ المَفروضَةِ زَندقةٌ، وارتكابُ المَحظوراتِ مَعصيَةٌ. لا تَسقطُ الفَرائِضُ عَنْ أَحدٍ في حالٍ مِنَ الأَحوالِ».

توفيَ ﷺ سنةَ (561) هجريَّةً، وقالَ قبلَ لَفظِهِ أَنفاسَهُ الأَخيرةَ: «استَعنتُ بِلا إِلهَ إِلَّا اللهِ وهوَ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ، ولا يَخشَى الفَوْتَ، سُبحانَ مَنْ تَعزَّزَ بِالقدرةِ وقَهرَ عبادَهُ بِالموتِ، لا إِلهَ إِلَّا الله مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ إِلى ماذا كانَ الشَّيْخُ الجيلانيُّ يحفزُ همَمَ العبادِ؟

2 ـ ماذا جَدَّدَ إِمامُ العارفينَ؟

3 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ إِمامِ العارفينَ، ولِماذا لُقِّبَ بِالجيلانيِّ؟

4 ـ مَنْ تكونُ أُمُّ إِمامِ العارفينَ، وما هيَ صفاتُها؟

5 ـ ما هيَ صفَةُ الشيخِ عبدِ القادرِ؟

6 ـ ما هيَ الطَّريقةُ الَّتي شاعَتْ عَنِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، وماذا صارَ لهُ فيها؟

7 ـ ما هيَ الصِّفاتُ الَّتي ذَكرها البَرزاليُّ عَن الشَّيْخِ عبدِ القادرِ؟

8 ـ بِماذا كانَ يَأمرُ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ أَصحابَهُ ويَقولُ لَهُمْ؟

السَّيْخُ أحمدُ الرِّفاعيُّ
قطبُ الأولياءِ
(512 ـ 578هـ)

الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ، قطبُ الأَولياءِ، السَّيدُ الشَّريفُ، مرشدُ الإِسلامِ وصاحبُ مَنقبَةِ تَقبيلِ يَدِ الرَّسولِ الأَعظمِ ﷺ، سليلُ بيتِ النُّبوَّةِ ومعدنِ الرِّسالةِ، وارِثُ مُضمرِ العلمِ العِلويِّ، شَيخُ الطَّريقَةِ والحقيقَةِ، العارفُ والغَوثُ الكبيرُ، مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ الدُّعاةِ المُصلحينَ الَّذينَ اجتباهُم المَولى ﷻ وحباهُمْ بِالعلمِ والعرفانِ، وأَكرمَهُمْ بِدرجةِ البرِّ والإِحسانِ في عبادتِهِ، وأَيَّدَهُمْ بِكراماتِ الإِحسانِ إِلى خلقِهِ، وسَلكوا في سبيلِ الأَنبياءِ والأَولياءِ الصَّالِحِيْنَ تَسعَى بينَ أَيديهِمْ أَنوارُ التَّجلي الأَعظم، فَارْتَقَى في المراتبِ العِلويَّةِ في رَوضةِ الصِّديقينَ والشُّهداءِ تَحدوهُ ظِلالُ العنايَةِ الإِلهيَّةِ، ومَكثَ عُمراً في أهلِ الأَرضِ، يَذبُّ عَنْ طريقِ السَّالكينَ إِلى اللهِ وساوسَ الشَّيطانِ، وهواجسَ النَّفسِ الأَمَّارةِ بِالسُّوءِ، وأمانيَ العقلِ الشَّاردِ عَنِ الإِيمانِ، أَسكرَ قُلوبَ المُحبينَ والذَّاكرينَ بِإِيصالِهِمْ إِلى عَتباتِ المَعارفِ القُدسيَّةِ، حَتَّى لُقِّبَ بِـ «أَبي العِلمينِ» أي: علمِ الظَّاهرِ والبَاطنِ.

وكما أَفاضَ اللهُ عليهِ بِفيوضاتِ عُلومِ الطَّريقَةِ والحَقيقَةِ، فَقَدْ أَفاضَ عليهِ بِمعارفِ

الدِّين والشَّريعَةِ، فَكانَ إماماً مُحدِّثاً فَقيهاً، وواعِظاً مُحنَّكاً حافظاً لِمواعظِ ورَقائِقِ الأَوَّلينَ السَّابقينَ مِن السَّلفِ الصَّالحِ، تَلقَى كَلماتُهُ في نفوسِ سامعيهِ استجابَةً لِلسَّيرِ عَلى طريقِ الهدايَةِ والاستقامةِ، فَهدَى اللهُ بِهِ كثيراً مِمَّنْ ضَلوا عَنْ طاعتِهِ، وأَعلَى بِهِ منزلةَ كثيرٍ مِمَّنْ جَدُّوا في الإقلاعِ عَنْ مَعصيَتِهِ، وحَبَّبَ في الدِّين بِهِ كثيراً مِمَّنْ بَعُدَتْ قُلوبُهُمْ عَنْ مَحبَّتِهِ، وكانَ دليلاً لِلحيارَى إِلى مواردِ جَنَّتِهِ، ومُعيناً لَهُمْ عَلى إِقامةِ حدودِ شَريعتِهِ.

كما كانَ رضي الله عنه مُمتثلاً في سُلوكِهِ وأَعمالِهِ لأَخلاقِ وفَضائِلِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ، يُغيثُ المَلهوفَ، ويَمشي في حاجةِ السَّائِلِ، ويُعينُ عَلى نوائِبِ الدَّهرِ، ويُساعدُ الأَرملةَ والمسكينَ واليَتيمَ، وكَذلِكَ كانَ يَفعلُ معَ العُميانِ والمَرضَى والعُرجانِ والعجائِزِ، حَتَّى إِنَّهُ كانَ يَقضي حوائِجَ النَّصارَى واليَهودِ الَّذينَ يَقصدونَهُ، فَشرحَ اللهُ بِسَببِ ذَلكَ قُلوبَ كثيرينَ مِنهُمْ إِلى الإِسلامِ فَدخلوا في دينِ اللهِ، وانضمُّوا إِلى مِلَّةِ التَّوحيدِ وقافلةِ النُّورِ والإِيمانِ عَلى يَديهِ، ورُبَّما قَدَّمَ خدمَتَهُ لِلنَّاسِ، والإِحسانَ إِليهِمْ عَلى العِبادةِ والذِّكرِ، بَلْ كانَ يَجتهدُ في ذَلكَ كَاجتهادِهِ في التَّعبُّدِ والتَّبتُّلِ إِلى رَبِّهِ ﷻ، ويَرَى أَنَّهُ بَلغَ عِندَ رَبِّهِ تلكَ المَقاماتِ العليَّةَ المَحمودةَ بِسببِ خدمةِ عبادِ اللهِ ومُساعدتِهِمْ، فَكانَ رضي الله عنه يَقولُ: «وَصلْنا إِلى ما وَصلْنا إِليهِ بِالشَّفَقَةِ عَلى عِبادِ اللهِ».

وكان يقولُ: «إذا رأيتُ يتيماً يَبكي يَتَقلقَلُ ـ أَي: يَتأَلَّمُ ـ كلُّ عضوٍ مِنِّي».

ومِنْ ثمَّ ليسَ بِدعاً مِنَ الأَمرِ أَنْ يُكرمَهُ ربُّهُ الإِكرامَ الأَوفَى، فَأَيَّدَهُ بِأَعظمِ ما يُكرمُ بِهِ عالماً عابداً مِنْ أَوليائِهِ، ورَدَّ رَسولُ اللهِ ﷺ عَليهِ سَلامَهُ عَلى مَسمعِ الأَشهادِ، ومَدَّ إِليهِ يَدهُ

الشَّريفَةَ عندَ قبرِهِ الشَّريفِ ﷺ، فَقبَّلَها وعادَتْ إِلى مَكانِها في القبرِ الشَّريفِ، عَلى مَرأَى مِنْ أُلوفِ النَّاسِ، وبِحضورِ كثيرٍ مِنْ عُلماءِ ومَشايخِ العالمِ الإِسلاميِّ.

❁ ❁ ❁

هوَ السَّيِّدُ الشَريفُ قطبُ الأَولياءِ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ بنُ أَبي الحَسنِ عَليٌّ دفين بَغدادَ بنِ يَحيَى بنِ ثابتِ بنِ السَّيِّدِ حازمِ عليٌّ أَبي الفَوارسِ بنِ أَحمدَ بنِ عليٌّ بنِ الحسنِ بنِ رفاعةَ أَبي المَكارمِ الحسنِ المَكيِّ بنِ المهديِّ بنِ مُحمَّدِ بنِ الحسنِ بنِ الحُسينِ بنِ موسى الثَّاني بنِ الإِمامِ إِبراهيمَ المُرتضَى بنِ الإِمامِ موسى الكاظمِ بنِ الإِمامِ جعفر الصَّادقِ بنِ الإِمامِ مُحمَّدِ الباقرِ بنِ الإِمامِ عَليٌّ زَينِ العابدينَ بنِ الإِمامِ الحُسينِ سَيِّدِ الشُّهداءِ بنِ الإِمامِ عَليٌّ بنِ أَبي طالبٍ أَميرِ المُؤمنينَ كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ زَوجِ الطَّاهرَةِ فاطمةَ الزّهراءِ بنتِ رَسولِ اللهِ ﷺ سَيِّدةِ نِساءِ أَهلِ الجَنَّةِ أَجمعينَ.

وسُمِّيَ الشَّيْخُ أَحمدُ بِالرِّفاعيِّ نسبَةً إِلى جَدِّهِ أَبي المَكارمِ رِفاعَةَ بنِ المَهديِّ، وقيلَ: نسبةً إِلى بَني رِفاعةَ وهُمْ قبيلةٌ في العربِ، وكانَ أَبوهُ أَبو الحسنِ عليٌّ يُلقَّبُ بِالمغربيِّ نسبَةً إِلى كونِ أَصلهِ مِنْ أُسرةِ العَلويينَ الأَشرافِ الَّذينَ فَرُّوا إِلى بِلادِ المَغربِ مِنْ بَطشِ الخُلفاءِ، واستوطنوا هُناكَ.

هذا وقَدْ هاجرَ أَبو الحسنِ عَليٌّ المَغربيُّ مِنْ بِلادِ المغربِ ونزلَ العراقَ وسَكنَ قريباً مِنْ واسطَ في البَطائِحِ بِقريَةٍ يُقالُ لَها: «أُمّ عبيدةَ»، وتَزوَّجَ فيها بِأُختِ الشَّيْخِ مَنصورِ

الزَّاهدِ، ورُزقَ مِنها أَولاداً، مِنهُم الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ الكبيرُ، لأَنَّ الأَعاجمَ الَّذينَ تَتلمذوا في الطَّريقَةِ عَلى يَديهِ يُسمُّونَهُ: سَيِّدي أَحمد الكبير[1].

ولدَ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ بِقريَةِ أُمِّ عبيدةَ مِنْ قُرَى البَطائِحِ في منطقةِ واسط في العراقِ سنةَ (512) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرعَ فيها مُحاطاً بِجوٍّ مِنَ الهُدَى والإِيمانِ في بيئةٍ دينيَّةٍ.

يَشتغلُ مُعظمُ أَهلِها بِالدِّين والطَّريقَةِ، تَدرَّجَ منذُ صغرِهِ مُرتقياً في سلكِ المَعارفِ الدِّينيَّةِ والرَّبَّانِيَّةِ، ولَمْ يَتجاوز السَّابعةَ مِنْ عمرَهِ، حَتَّى بَدأَ بِحفظِ القُرآنِ الكريمِ، فَأَتَمَّ حِفظَهُ خلالَ فترةٍ وَجيزةٍ عَلى يَدِ الشَّيْخِ المقرئِ «عَبدِ السَّميعِ الحَربوني»، فَتوفَّى والدُهُ بَعدَ عامٍ، فَكفلَهُ خالُهُ الشَّيْخُ مَنصورٌ البَطائِحيُّ، الَّذي أَدخلَهُ عَلى الإِمامِ العَلَّامةِ المُحدِّثِ «أَبي الفَضلِ عَليٍّ الواسطيِّ» المَشهورِ عندَ أَهلِ العِلمِ والطريقَةِ بِالشَّيْخِ الواسطيِّ، فَبرعَ الشَّيْخُ أَحمدُ عَلى يَديهِ بِالعلومِ النَّقليَةِ والعقليَّةِ وأحرزَ قصبَ السَّبقِ على أقرانِهِ، كما لَبسَ عَلى يَديهِ الخُرقةَ[2] في طريقَةِ أَهلِ الحقيقَةِ مِنَ الصُّوفيَّةِ، وأَجازهُ الشَّيْخُ الواسطيُّ بِجميعِ عُلومِ الشَّريعةِ والطَّريقَةِ، وهوَ الَّذي لَقَّبهُ (أَبا العِلمينِ) الظَّاهرِ والباطنِ.

وعَنْ هذا المَقامِ الَّذي أَحرزَهُ الشَّيْخُ أَحمدُ عَنْ شَيخِهِ، قالَ أَحدُهُمْ يَمدحُهُ: «أَبا العَلمينِ أَنتَ الفَردُ. . لَكنْ إِذا حُسبَ الرِّجالُ فَأنتَ حزبُ».

ومِمَّا يَدلُّ عَلى عُلوِّ مقامِ الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ، بِشارةُ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ بِهِ قبلَ

---

(1) النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تَغري بردى، والوافي بالوفيات للصفدي.

(2) الخرقة: عَباءة يلبسها أهل الطريقة من الصوفية كشعار للانتساب إلى الطريقة.

ولادتِهِ، فَقَدْ رَوَى بَعضُ أَهلِ العلمِ: أَنَّ خالَ الشَّيْخِ أَحمدَ، وهوَ الشَّيْخُ البازُ الأَشهبُ السَّيِّدُ الرَّبانيُّ مَنصورُ البَطائِحيُّ، رأَى في الرُّؤيا رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ لَهُ: «**بَعدَ أَربعينَ يَوماً تَلدُ أُختُكَ غُلاماً يَكونُ سَيِّدُ الأَولياءِ ـ في عَصرِهِ ـ كما أَنا سَيِّدُ الأَنبياءِ**».

❁ ❁ ❁

استغرقَ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ حياتَهُ كُلَّها وهوَ يَقومُ بِجمعِ المَعارفِ الدِّينيَّةِ والوَهبيَّةِ (الشَّريعةِ والطريقةِ)، ويَنشرُها بينَ العِبادِ، ويَدعو إِلى سُلوكِ الطَّريقِ المُوصلِ إِلى اللهِ بِالعبادةِ والعَملِ الصَّالحِ، فانعقَدتْ كَلمةُ عُلماءِ وشيوخِ عصرِهِ عَلى عظمِ شَأنِهِ، ورفعةِ قَدرِهِ، كما أَفاضَ اللهُ عليهِ مِنْ لَدنهُ علماً خاصّاً حَتَّى رَجعَ مشايخُهُ إِليهِ وتَأَدَّبَ مُؤدبوهُ بينَ يَديهِ.

وقَدْ أَسَّسَ الشَّيْخُ أَحمدُ الطَّريقَةَ المَنسوبةَ إِليهِ المُسمَّاةَ بِالطَّريقَةِ الرِّفاعيَّةِ، وتَقومُ الطَّريقَةُ الرِّفاعيَّةُ عَلى العملِ بِمُقتَضَى الكتابِ والسُّنَّةِ، ثُمَّ أَخذِ النَّفسَ بِالمُجاهدةِ والمُكابدةِ، والإِكثارِ مِنَ الذِّكرِ وقِراءَةِ الأَورادِ، وذَلكَ وفقَ إِرشاداتِ الشَّيْخِ وتَوجيهاتِهِ، معَ ضَرورةِ التَّسليمِ والانقيادِ لهُ.

وكانَ الشَّيْخُ أَحمدُ حريصاً كُلَّ الحرصِ في حَضِّ مُريديهِ عَلى هَذِهِ المَبادىءِ والتَّعليماتِ، وأَنْ يَكونَ حالُهُمْ موافقاً لِحالِ السَّلفِ الصَّالحِ، وأَنْ يَلتزموا بِالكتابِ والسُّنَّةِ في كُلِّ أَحوالِهِمْ، وأَنْ يلبسوا ثَوبَ الوقارِ والتَّواضعِ واجتنابِ الجَفاءِ والتَّصَنُّعِ في الزُّهدِ، وتَعريَةِ النَّفسِ مِنَ الدُّنيا، وتَحمُّلِ البَلاءِ، وخدمةِ النَّاسِ.

وكانَ مِنْ أهمِّ وصاياهُ لِمُريديهِ وأَتباعِهِ: «مَنْ تَمشيَخَ عليكُمْ فَتَتلمذوا لَهُ، ومَنْ مَدَّ يَدَهُ إِليكُمْ لِتُقَبِّلوها فَقَبِّلوا رِجلَهُ، ومَنْ تَقدَّمَ عليكُمْ فَقدِّموهُ وكونوا آخرَ شَعرةٍ في الذَّنبِ، فَإِنَّ الضَّربةَ أَوَّلُ ما تَقعُ عَلى الرأسِ». وهذا كنايَةٌ عَلى تَجنُّبِ التَّكبُّرِ والتَّواضعِ لِلنَّاسِ.

ومِنْ أَقوالِهِ لِمُريديهِ وأَتباعِه: «عَظِّموا شَأنَ الفُقهاءِ والعُلماءِ كَتعظيمِ شَأنِ الأَولياءِ والعُرفاءِ، فَإِنَّ الطَّريقَ واحدٌ، وهَؤلاءِ ورَّاثُ ظاهرِ الشَّريعةِ، وحملةُ أَحكامِها الَّذينَ يُعلِّمونَها النَّاسَ، وبِها يَصلُ الواصلونَ إِلى اللهِ، إِذْ لا فائِدةَ مِنَ السَّعيِ أَو العَملِ عَلى الطَّريقِ المُغايرِ للشَّرعِ».

ولِذا فَأدبُ المُريدِ يَجبُ أَنْ يكونَ في متابعةِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ: «كُلُّ الآدابِ مُنحصرةٌ في مُتابعةِ النَّبيِّ قولاً وفِعلاً وحالاً وخُلُقاً، فَالصُّوفيُّ آدابُهُ تَدلُّ عَلى مَقامِهِ، زِنوا أَقوالَهُ وأَفعالَهُ وأَخلاقَهُ في ميزانِ الشَّرْعِ، يُعلمُ لَديكُمْ ثقلُ ميزانِهِ وخِفَّتِهِ».

وفي كتابِ «طبقاتِ الأَولياءِ»، أَنَّهُ سُئلَ عَن التَّصوُّفِ، فَقَالَ لِلسائلِ:

تَسأَلُنا عَنْ تَصوُّفِنا أَمْ تَصوُّفِكُمْ؟

فَقَالَ: يا سَيِّدي، كانَتْ مَسأَلةٌ فَصارَتْ اثنتينِ، اشرَحهُما لي.

فَقَالَ: أَمَّا تَصوُّفُكُمْ أَنتُمْ فَهوَ أَنْ تُصَفِّي أَسرارَكَ، وتَطيبَ أَخبارَكَ، وتُطيعَ جبَّارَكَ، وتَقومَ ليلَكَ، وتَصومَ نَهارَكَ، وأَمَّا تَصوُّفُ القَومِ، فَكما قيلَ:

لَيسَ التَّصوُّفُ بِالخِرَقِ ... مَنْ قالَ هذا فَقَدْ مَرقَ

إِنَّ التَّصوُّفَ يا فَتى ... حَرْقٌ يُمازجُهُ قَلق

والزَّاهدُ العابدُ عِندَهُ مَنْ تركَ كُلَّ شَيءٍ يشغلُ عَنِ اللهِ ﷻ.

❁ ❁ ❁

لا مريَةَ أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الرِّفاعيَّ مَعدودٌ عِندَ العُلماءِ والفُقهاءِ المُتقدِّمينَ والمُتأَخرينَ، مِنْ أَولياءِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ، والدَّاعِينَ إلى اللهِ بِإِحسانٍ، المُؤيدينَ بِالكراماتِ والأَحوالِ المُستفيضَةِ بِالمَددِ الأَوفرِ، وإِنَّ مِنْ أَعظمِ الكراماتِ الَّتي أَيَّدَهُ اللهُ بِها، كرامةُ تَقبيلِ يَدِ النَّبيِّ ﷺ الشَّريفَةِ، هَذِهِ الكَرامةُ الَّتي تَناقَلَها أَعلامُ الطَّريقةِ الرِّفاعيَّةِ بِالتَّواترِ، ونَسبَ بَعضُهُمْ رِوايَةَ حكايَتِها إِلى الإِمامِ السُّيوطيِّ، في حينِ أَنَّ العُلماءَ المُتقدمينَ والمُؤَرِّخِينَ لَمْ يَذكروها البَتةَ، وأَنكرَ صحَّتَها أَهلُ العلمِ المُتأَخرونَ، لأَنَّها لَمْ تَثبتْ بِالطُّرقِ العلميَّةِ المَعهودةِ عندَ العُلماءِ، ونَحنُ نَذكرُها هُنا للاستئناسِ بِذكرِها، حيثُ نُظمَتْ فيها الأَشعارُ والقَصائِدُ الكَثيرةُ، وسارَتْ بِحكايَتِها وقَصِّها الرُّكبانُ في الماضي والحاضرِ، فَقَدْ زَعموا: أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ حَجَّ إِلى مكَّةَ سنةَ (555) هجريَّةً، وبَعدَ فراغِهِ مِنْ أَداءِ فَريضَتِهِ، يَمَّمَ وجهَهُ شطرَ المَدينةِ المُنوَّرةِ قاصداً زيارةَ قبرِ جَدِّهِ النَّبيِّ ﷺ، وقُبيلَ دخولِهِ إِليها تَرجَّلَ عَنْ ناقَتِهِ وخلعَ نعليهِ، ومَشَى حافياً، وعندما وَصلَ إِلى قَبرِ الحبيبِ المُصطفَى قالَ عَلى رؤوسِ الأَشهادِ: «السَّلامُ عَليكَ يا جَدِّي يا رَسولِ اللهِ. فَردَّ عليهِ النَّبيُّ مِنْ قبرِهِ الشَّريفِ: «**وعليكَ السَّلامُ يا ولدي!**» فَجثَا الشَّيْخُ أَحمدُ عَلى ركبَتيهِ، ثمَّ قامَ وبكَى وأَنَّ طويلاً وقالَ:

في حالةِ البُعدِ روحي كنتُ أُرسلُها ... تُقَبِّلُ الأرضَ عنِّي وهيَ نائبَتي

وهذِهِ دولةُ الأشباحِ قَدْ حَضَرتْ ... فَامدُدْ يمينكَ كي تَحظَى بها شَفَتي

فمدَّ له رسولُ اللهِ ﷺ يدَهُ الشَّريفةَ العَطرةَ مِنْ قَبرِهِ الأَزهرِ المكرَّمِ فقبَّلها في مَلأٍ يقرُبُ مِن تسعينَ ألفِ رجلٍ والنَّاسُ ينظرونَ اليدَ الشَّريفَةَ، وكانَ في المَسجدِ مَعَ الحُجَّاجِ عَددٌ مِنْ كبارِ العُلماءِ وفي مقدِّمتِهِم الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلاني، والشَّيْخُ عديُّ بنُ مُسافرٍ الشَّاميُّ، والشَّيْخُ حياةُ بنُ قيسٍ الحرَّانيُّ، عِلماً أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الَّذي كانَ يَتواجدُ في دَرسِهِ خَمسةُ آلافِ مِحبرةٍ، وتَتكاثرُ حولَهُ جُموعُ المُريدينَ والأَتباعِ الَّذينَ يَتلقَّفونَ مِنهُ كُلَّ كَلمةٍ يَقولُها، ويَكتبونَ عَنهُ كُلَّ حالٍ أَو كرامةٍ، كانَ مِنْ أَشدِّ خَلقِ اللهِ مُحاربَةً لِلبدعِ والأَوهامِ والضَّلالاتِ، ورَفضاً لِلشَّطحاتِ الَّتي يَزعمُها بَعضُ أَتباعِ الطَّريقَةِ، وكانَ يَقولُ هاتفاً في أَصحابِهِ: «طَريقي دينٌ بِلا بدعةٍ، وهِمَّةٌ بلا كَسلٍ، وعَملٌ بِلا رياءٍ، وقَلبٌ بلا شُغلٍ، ونفسٌ بلا شَهوةٍ».

وكانَ يُحذِّرُ النَّاس مِنْ أهلِ الشَّطحِ والغُلوِّ ويقولُ: «هؤلاءِ قُطَّاعُ الطَّريقِ فَاحذَروهُمْ» وكان يكرهُ أصحابَ القَولِ بالحُلولِ والوحدةِ المُطلقَةِ الَّذينَ يقولونَ إنَّ اللهَ تَعالى يحلُّ بالعالمِ ويقولُ: «هؤلاء قومٌ أَخَذتْهُم البِدعَةُ مِنْ سُروجِهِمْ، إياكُمْ ومُجالَسَتَهُمْ».

عَلَى أَنَّ أَعظمَ كراماتِ الشَّيْخِ بِإجماعِ الأُمَّةِ، هوَ وقوفُهُ عِندَ حدودِ الشَّرْعِ، ونَهجُهُ طريقَ الاستقامةِ في أَحوالِهِ كُلِّها، ومَعلومٌ عِندَ أَهلِ العِلمِ: أَنَّ الاستقامةَ أَعظمُ كرامَةً، بَلْ سَبَقَتِ الكرامةَ في حالِ القربِ والوصولِ إِلى عَلَّامِ الغُيوبِ. نَعَمْ، قَدْ ذَكرَ بَعضُ المُؤرخينَ الثِّقات، أَنَّ أَتباعَ الشَّيْخِ ـ وهُم الَّذينَ عُرفوا بِالبطائحيَّةِ ـ كانَتْ تَجري عَلى أَيديهِمْ بَعضُ الأَحوالِ والكراماتِ، كالوقوفِ وسطَ النيرانِ، وأَكلِهِم الحيَّاتِ الحيَّةَ دونَ أَنْ يُصيبَهُمْ أَذىً.

❁ ❁ ❁

ومِمَّا لا ريبَ فيهِ، أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ، أَيدَهُ اللهُ بِروحٍ مِنْهُ، ومَنحَهُ مِنهُ قُوَّةَ التَّأثيرِ عَلى الآخرينَ مَهما كانَ شَأنُهُمْ في الحياةِ، لِوَرعِهِ واجتهادِهِ في العبادةِ، ولِإخلاصِهِ في دينِ اللهِ، وأَيضاً لِعلمِهِ الجَمِّ والوافرِ، فَكانَ مِنَ الرَّاسخينَ في العلمِ الَّذينَ يَعلمونَ أَسرارَ الكتابِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرةِ، فَكانَتْ مواعظُهُ تتَغلغَلُ في النُّفوسِ الباليَةِ الهَشَّةِ، وتَنفذُ في القلوبِ والعُقولِ الصَّدئةِ، كما يَنفذُ الغيثُ في الأَرضِ القاحلةِ فَيُحيلُها نَضرةً حُلوةً خَضرةً تَسرُّ النَّاظرينَ، فَقَدْ أَرسلَ إِليهِ الخليفَةُ العبَّاسيُّ «المُسْتنجدُ بِاللهِ» حاجبَهُ الخاصَّ يَحملُ إِليهِ رِسالةً يَسأَلُهُ النُّصحَ فيها، فَقَالَ يُظهرُ افتقارَهُ وحاجَتَهُ إِلى النَّصيحةِ: «أَسأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تُكثرَ مِنَ النَّصيحَةِ لي بِجوابِكَ، فَإِنِّي في حاجةٍ لِنَصيحَتِكَ، وأَيِّ نَصيحَةٍ ولا ريبَ عندي بِحصولِ بَركةِ نُصحِكَ لي إِنْ شاءَ اللهُ».

فَكتبَ إِليهِ الشَّيْخُ أَحمدُ موعظةً طَويلَةً يَحضُّهُ فيها عَلى اتِّباعِ تَعاليمِ الإِسلامِ، والتزامِ أَحكامِهِ، وتَوخي العدلِ بينَ الرَّعيَّةِ لأَنَّهُ سبيلُ النَّجاةِ والفَلاحِ، وكانَ مِنْ جُملةِ ما كتبَ لَهُ الشَّيْخُ قطبُ الأَولياءِ: «وأَنتَ تَدري يا أَميرَ المُؤمنينَ أَنَّ ابن عَمِّكَ إِمامَ المُسلمينَ عَليّاً كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ، حَدَّثَ عَنِ ابن عَمِّهِ سَيِّدِ المَخلوقينَ: «لَنْ تُقدَّسَ أَمَّةٌ لا يُؤخذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ القَويِّ غير مُتعتعٍ» والأَمرُ واللهِ كَذلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الخليفةَ «المُستنجدَ» لَمَّا وَصلَهُ كتابُ الشَّيْخِ، قَرأَهُ وبَكَى، ثُمَّ قرأَهُ وبَكَى، ثُمَّ قَرأَهُ وبَكَى. وقالَ: واللهِ إِنَّ في لِسانِ السَّيِّدِ أَحمدَ نَغمةٌ مِنْ لِسانِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ، ولا شَكَّ! فَهوَ بَركةُ بِلادِ اللهِ اليَومَ.

وقَدْ أَجمعَ المُؤَرِّخُونَ على أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الرِّفاعيَّ تُوفِّي في قريَةِ أُمِّ عبيدةَ في أرضِ البَطائِحِ مسقطِ رأَسِهِ سنةَ (578) هجريَّةً ودُفنَ فيها، ومازالَ قَبرُهُ هُناكَ يُزارُ إِلى يَومِنا هذا، وقَدْ جُمعَتْ أَقوالُ الشَّيْخِ رَحمهُ اللهُ تَعالَى وحِكمُهُ ومَجالسُ وَعظِهِ في عدَّةِ كُتبٍ مِنها:

الكتابُ الجليلُ «البُرهانُ المُؤيّدُ» وهوَ أَهمُّ كُتبِهِ عَلى الإِطلاقِ، ومِنها كتابُ «مَجالس أَهلِ الحقيقَةِ»، ومنها كتابُ «الحِكم» وهَذِهِ الكُتبُ الثَّلاثةُ مَطبوعةٌ ومُتوفِّرةٌ بينَ الأَيدي لِمَنْ يُريدُ قراءَتَها أَو الاطِّلاعَ عليها، كَما لا يَزالُ لَهُ مَلايينُ الأَتباعِ يَنشرونَ طَريقَتَهُ في كافَّةِ أَنحاءِ المَعمورةِ، فَرحمَ اللهُ قِطبَ الأَولياءِ، وسَيِّدَ العارفينَ، وجزاهُ عَن الإِسلامِ والمُسلمينَ ما هوَ أَهلٌ لَهُ.

قالَ اليافعيُّ في كتابِهِ المَعروفِ «مرآةِ الجنانِ وعبرةِ اليَقظانِ» في ترجمةِ الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ: «شَيخُ الشُّيوخِ الَّذي مُلِئَتْ شهرتُهُ بِالمشارقِ والمَغاربِ، تاجُ العارفينَ، وإِمامُ المُعرِّفينَ، ذو الأَنوارِ الزَّاهرةِ، والكراماتِ القاهرةِ، والمَقاماتِ العَليَّةِ والأَحوالِ السَّنيَّةِ، والبَركاتِ العامَّةِ، والفَضائِلِ الشَّهيرةِ بينَ الخاصَّةِ والعامَّةِ».

ومِنْ أَقوالِ سَيِّدِنا الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ رَحِمَهُ اللهُ الرَّائعةِ والَّتي تُعتبرُ نبراساً لِكُلِّ مَنْ يُريدُ أَنْ يَسلكَ الطَّريقَ المُوصلَ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«سَلكتُ كُلَّ الطُّرقِ الموصلةِ، فَما رأَيتُ أَقربَ ولا أَسهلَ ولا أَصلحَ مِنَ الافتقارِ والذُّلِّ والانكسارِ» فقيلَ لَهُ: يا سَيِّدي، كيفَ يكونُ؟ قالَ: «يُعَظِّمُ أَمرَ اللهِ، ويَشفقُ عَلى خَلقِ اللهِ، ويَقتدي بِسنَّةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ومِنْ شعرِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قولُهُ:

إِذا جَنَّ ليلي.. هامَ قلبي بِذكرِكُمْ أَنوحُ كما ناحَ الحمامُ المُطوِّقُ

وفَوقي سَحابٌ يُمطرُ الهمَّ والأَسَى و تَحتي بِحارٌ بِالأَسَى تَتدَفَّقُ
سَلوا أُمَّ عَمرٍو كيفَ باتَ أَسيرُها؟ تَفكُّ الأَسارَى دونَهُ وهوَ مُوثَقُ
فَلا هوَ مَقتولٌ فَفي القَتلِ راحةٌ ولا هوَ مَمنونٌ عليهِ فَيُطلَقُ

الشَّيخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ
سُلطانُ العلماءِ
(578 ـ 670هـ)

الشَّيْخُ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلامِ، سُلطانُ العُلماءِ، وقاهرُ السَّلاطِين، خَطيبُ مصرَ والشَّامِ المُفوَّهُ، وقاضي القُضاةِ العالمُ الثَّبتُ الحجَّةُ المُجتهدُ، بائِعُ الأُمراءِ والقادةِ المَماليكِ، مَنْ دانَتْ لِكَلمتِهِ إرادةُ المُلوكِ والسَّلاطِين، وأعزَّ اللهُ بِهِ أحكامَ الشَّرْعِ والدِّينِ، وعَزَّزَ بِهِ هيبَةَ الإسلامِ في قلوبِ وعيونِ العِبادِ البُسطاءِ والمُفكِّرين، وأذلَّ بِهِ المُتكبِّرينَ والمُتعجرفينَ فَتنادوا عَلى ما انكسرَ مِنْ شَوكَتِهِمْ مُصبحينَ، وطَفقوا يُعلنونَ أنَّ رأيَ الحَقِّ هوَ العزيزُ المَكينُ.

ومَهما تَفَنَّنا في تَفصيلِ الكلامِ لِبيانِ قَدرِ العزِّ بنِ عبدِ السَّلامِ، وفي وصفِ جدِّهِ واجتهادِهِ لِنصرةِ الحَقِّ، وخِدمةِ الإسلامِ، نَرَى أَنفسَنا مُقصِّرينَ في حَقِّهِ، ولا نُدركُ قَدراً ضَئيلاً مِنْ رَدِّ الجَميلِ الَّذي لَهُ علينا وعَلى سائِرِ العربِ والمُسلمينَ، وإنَّ مَنْ يَجهلُ أَو يُنكرُ قَدرَ هذا العالمِ الرَّبانيِّ وفَضلَهُ في تاريخِنا المَجيدِ، فَإنَّهُ بِلا شَكٍّ مِنْ حَقيقَةِ الانتسابِ لِهذا الدِّين ولِهذِهِ الأُمَّةِ عَلى طَرَفي نَقيضٍ. فَما بَالُنا بِعالمٍ عَملَ المُلوكُ والسَّلاطينُ جاهدينَ مِنْ

أجلِ استرضائِهِ، وعَدمِ تَفجيرِ نَقمةِ النَّاسِ عليهِمْ، لِما كانَ يَتمتَّعُ بِهِ مِنْ مَكانةٍ عَظيمةٍ في قُلوبِ العِبادِ، ومِنْ مَنزلةٍ مُهيبَةٍ بينَ العُلماءِ، حيثُ كانَ مِثالاً لِلعالمِ المُخلصِ لِدينِهِ وأُمَّتِهِ، لا يَخشَى في قولِ الحَقِّ وتَأييدِهِ لومَةَ لائِمٍ، ولا يَهابُ مَلكاً أَو سُلطاناً أَو أَميراً في نَقدِ الباطلِ والفَسادِ، وفي زَجرِ الحُكَّامِ عَنِ الحيفِ والظُّلمِ إِنْ تَجانفوا لِإِثمٍ أَو عُدوانٍ عَلى أَحدٍ مِنْ أَفرادِ الأُمَّةِ، أَو إِذا شَذُّوا عَنْ سَبيلِ العَدلِ والإِحسانِ، أَو جَنحوا إِلى مَعصيَةٍ خالفوا فيها حُكماً مِنْ أَحكامِ الشَّرْعِ أَو عارضوا أَدباً مِنْ آدابِ الدِّينِ الحَنيفِ.

إِنَّ شَجاعَتَهُ وشَكيمَتَهُ في مُقارعةِ الباطلِ ونُصرةِ الحَقِّ تُذكِّرنا بِشخصيَّةِ أَبي ذَرٍّ الغَفّاريِّ الفَذَّةِ الَّتي تَأبَى الضَّيمَ، وتَرفضُ الخُنوعَ لِسَطوَةِ حاكمٍ لا يَخشَى اللهَ في حُكمِهِ، أَو يَخفضُ جناحَ الذُّلِ لِلمنافقينَ المُرائينَ دونَ جَماعةِ المُؤمنينَ الصَّادقينَ، أَو يُعطي الدَّنيَّةَ مِنْ دينِهِ لأَعداءِ الأُمَّةِ، ويُفرِّطُ بِحقوقِ العبادِ والبِلادِ حِفاظاً عَلى مَصالحِهِ الشَّخصيَّةِ، أَو سَعياً في تَدعيمِ أَركانِ مُلكِهِ.

ومِنْ ثُمَّ عاشَ سُلطانُ العُلماءِ في عَصرٍ مِنْ أَشدِّ العُصورِ الَّتي تَعرضَتْ فيها الأُمَّةُ لِلأَحداثِ الجِسامِ في حياتِها وتاريخِها، في عَصرِ الفتنِ والصِّراعاتِ والحروبِ، فَشهدَ الحروبَ الصَّليبيَّةَ، وحروبَ التَّتارِ والمَغولِ، والصِّراعاتِ الدَّاخليَّةَ لِلسَّلاطينِ والمُلوكِ الَّذينَ حَكموا الأُمَّةَ، وشارَكَ بِقوَّةٍ في رسمِ وصياغَةِ المعالمِ الأَساسيَّةِ لِحياةِ أُمَّتِهِ عَلى الصَّعيدِ الدِّيني والسِّياسيِّ بِما يَتوافَقُ مَعَ حدودِ الشَّريعةِ، وتعاليمِ الإِسلامِ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ جِهاداً ضارياً وعَنيفاً، بِسيفِهِ وقلبِهِ ولِسانِهِ، ووَقفَ بِالمرصادِ في وَجهِ الحُكَّامِ الَّذينَ أَرادوا أَنْ يَتلاعَبوا في مَصيرِ الأُمَّةِ حَسبَ أَهوائِهِمْ ومَصالحِهِمْ، وصرخَ في وجوهِهِمْ

صَرخاتِ حَقٍّ، رَدَّدَ التّاريخُ صَداها حَتَّى يَومِنا هَذا، ومِنْ أَجلِ ذَلكَ استحقَّ أَنْ يَكونَ سُلطانَ العُلماءِ بِإجماعِ الأُمَّةِ قَديماً وحَديثاً.

❋ ❋ ❋

هُوَ الشَّيْخُ العِزُّ أَبو مُحمَّدٍ عِزُّ الدِّينِ بنُ عَبدِ العزيزِ بنِ عبدِ السَّلامِ بنِ أَبي القاسمِ بنِ الحسنِ بنِ مُحمَّدٍ بنِ مُهذَّبِ السّلميُّ، المَغربيُّ الأَصلِ، هاجرَ أَحدُ أَجدادِهِ مِنْ بِلادِ المَغربِ إِلى المَشرقِ، وسَكنَ واستوطنَ في بِلادِ الشَّامِ.

ولِدَ الشَّيْخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ في دمشقَ سنةَ (578) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها، ورُبِّي منذُ صغرِهِ عَلى التَّقوَى والإِيمانِ، حيثُ كانَ والدُهُ «عبدُ العزيزِ» مِنَ المُتدينينَ والنُّساكِ المَعروفينَ في دمشقَ حِينها.

ويُقالُ إنَّ العزَّ بنَ عَبدِ السَّلامِ، قَدْ سَعَى يَطلبُ العلمَ في سِنٍّ مُتأَخِّرةٍ، فَيذكرُ الشَّيْخُ عَبدُ الوهابِ السُّبكيُّ عَنْ أَبيهِ ـ وكانَ مُعاصراً لِلعزِّ بنِ عَبدِ السَّلامِ ـ في كتابِهِ «طَبقاتِ الشَّافعيَّةِ الكُبرَى» سَببَ اجتهادِ العزِّ في طلبِ العلمِ وتَحصيلِهِ في الحكايَةِ التَّالِيةِ:

«كانَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين في أَوَّلِ أَمرِهِ فَقيراً جِدّاً، ولَمْ يَشتغِلْ في العلمِ إِلَّا عَلى كبرٍ، وسَببُ ذَلِكَ أنه كان في بيت في الكلَّاسة ـ وهي الزاوية والبناء والمدرسة عند الباب الشمالي للمسجد الأموي ـ من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد فاحتلم، فقام مسرعاً، ونزل في بركة الكلاسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام، فاحتلم ثانية، فعاد إلى البركة، لأن أبواب الجامع مغلقة، وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من

شدة البرد، أنا أشك (والد السبكي يتكلم) هل كان الشيخ الإمام يحكي أن هذا اتفق له ثلاث مرات أو مرتين فقط، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة:

يا بن عبد السلام، أتريد العلم أم العمل؟

فقال الشيخ عز الدين: العلم، لأنه يهدي إلى العمل.

فأصبح، وأخذ «التنبيه» ـ وهو أهم كتاب مختصر في الفقه الشافعي للشيرازي، ويعتبر الكتاب الأول للمبتدئين ـ فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم حتى صار أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله».

وفي الحقيقَةِ لِزمَ الشَّيْخُ العِزُّ بَعدَ هَذِهِ الحادثَةِ العَلَّامةَ ابنَ عساكرَ الدِّمشقيَّ، وصَحبَهُ فَترةً طويلةً، كما سَمعَ إِلى عُلماءِ دمشقَ المُبرزينَ في عَصرهِ، فَبرعَ في مُختلفِ العُلومِ، وصارَ مِنْ كبارِ الفُقهاءِ والعُلماءِ المُجتهدينَ، وفي هذا الصَّددِ يقول الشَّيْخُ العِزُّ عن نفسه:

«ما احْتجتُ في علمٍ من العلومِ إلى أنْ أكملَه على الشيخِ الَّذي أقرأُ عليه، وما توسَّطته على شيخٍ من المشايخِ الذين كنتُ أقرأُ عليهم إلَّا وقالَ لي الشيخُ: (قد استغنيتَ عني، فاشتغلْ مع نفسكَ)، ولم أقنعْ بذلك، بل لا أبرحُ حتى أكملَ الكتابَ الذي أقرؤهُ عليه في ذلك العلمِ».

كما اشتُهرَ بينَ عُلماءِ عَصرهِ بِورعِهِ وتَقواهُ، وصَرامَتِهِ في دينِهِ، وقُوَّةِ شَكيمتِهِ، وتَحمُّلِهِ الصِّعابَ والشَّدائِدَ في سبيلِ مَرضاةِ رَبِّهِ ﷻ، ونصرةِ الحَقِّ أَينَما كانَ، فَقَدْ جمعَ في شَخصِهِ بينَ العلمِ الرَّاسخِ والخُلقِ الحَسنِ، كما كانَ يَتمتَّعُ بِشخصيَّةٍ قَويَّةٍ أَمامَ العامَّةِ

والخاصَّةِ، وبَرزَ في علمِ الفِقهِ، والدَّعْوَةِ إلى اللهِ، كما دأبَ عَلى الأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهْيِ عَن المُنكرِ قَولاً وعَملاً.

وعِندما شاعَ صيتُهُ وعَلا ذكرُهُ بينَ عُلماءِ دمشقَ، صارَ كبيرَ فُقهاءِ المَذهبِ الشّافعيِّ، كما عَيَّنَهُ المَلكُ الصَّالحُ إسماعيلُ الأَيوبيُّ صاحبُ دمشقَ خَطيباً في الجامعِ الأُمويِّ.

❋ ❋ ❋

كانَ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلامِ خَطيبَ دمشقَ المُفوَّهَ، استطاعَ بِسعةِ علمِهِ، وخطَبِهِ أَنْ يَستقطبَ النَّاسَ، ويَملكَ قُلوبَهُمْ وأَحلامَهُمْ، ويَشحذَ هِمَمَهُمْ لِجهادِ الصَّلِيبيينَ الَّذينَ كانوا يُعلنونَ الحربَ عَلى الإسلامِ وأَهلِهِ، ويَشنُّونَ غاراتِهِمْ عَلى ثُغورِ البِلادِ، وقَدْ كانَ العَهدُ بِهِ قَريباً في جَلاءِ الصَّلِيبيينَ عَنْ بيتِ المقدسِ عَلى يَدِ القائدِ البَطلِ صَلاحِ الدِّين الأَيوبيِّ، وقَدْ كانَت العَلاقَةُ بينَهُ وبينَ المَلكِ الصَّالحِ إسماعيلَ مَتينَةً وحَسنةً قِوامُها الاحترامُ المُتبادلُ، والودُّ والحُبُّ، إلَّا أَنَّ الأَحداثَ جَرَّتْ ما عَكَّرَ صَفوَ هَذِهِ العلاقَةِ بَينَهُما، فَقَدْ كانَ المَلكُ الصَّالحُ إسماعيلُ يَطمعُ في الاستيلاءِ عَلى مصرَ وضَمِّها إلى مَملكَتِهِ، وقامَ بِقتالِ ابنِ أَخيهِ الصَّالحِ نَجمِ الدِّين أَيوبَ حاكمِ مِصرَ، وأَرادَ القَضاءَ عليهِ وانتزاعَ السُّلطةِ مِنْ يَدِهِ، ولِتَحقيقِ هذا المَأربِ والَى الصَّلِيبيينَ وأَعطاهُمْ بَعضَ المُدنِ السَّاحليَةِ، وتَنازلَ لَهُمْ عَنْ حُصونِ مدينةِ صَفد في فلسطين، ومَكَّنَ لَهُمْ مِنْ وجودِهِمْ في المَنطقَةِ، كَما سَمحَ لَهُمْ بِدخولِ دمشقَ لِشراءِ السِّلاحِ والعَتادِ والطَّعامِ. عِندَها غَضبَ الشَّيْخُ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلامِ، وصَعدَ المنبرَ وخَطبَ بِالنَّاسِ خُطبةً عَصماءَ أَثارَ فيها حَميتَهُمْ ضِدَّ الصَّلِيبيينَ،

وأَفتَى بِحُرمةِ بيعِ السِّلاحِ لِلصَّليبيينَ، وحُرمةِ الصُّلحِ مَعَهُمْ لأَنَّهُمْ مُعتدونَ وغُزاةٌ يُناصبونَ المُسلمينَ العَداءَ والكراهيةَ، كما قَطعَ الدُّعاءَ والخُطبَةَ عَن الصَّالحِ إِسماعيلَ، وأَعلنَ العصيانَ العامَ عَلى حلفِهِ مَعَ أَعداءِ الوطنِ والدِّين وهوَ الشَّيْخُ المُجاهدُ الخبيرُ بِمكرِهِمْ وغَدرهِمْ، وقالَ في آخرِ الخُطبَةِ:

«اللَّهُمَّ أَبرِمْ أَمرَ رشدٍ لِهذِهِ الأُمَّة يعزُّ فيهِ أَهلُ طاعَتِكَ، ويذلُّ فيهِ أَهلُ مَعصيَتِكَ، ويُؤمَرُ بِالمعروفِ ويُنهَى عَنِ المُنكرِ»، ثُمَّ نزلَ.

أَثارَ هَذا الأَمرُ حَفيظَةَ وغَضبَ الصَّالحِ إِسماعيلَ عَلى الشَّيْخِ العِزِّ، وأَمرَ بِإِبعادِهِ عَن الخِطابَةِ وسَجنَهُ. فَوقعَ الهرجُ والمَرجُ، واستنفرَ النَّاسُ في دمشقَ كُلِّها غيرةً عَلى عالمِهِمْ وفَقيههِمْ وخَطيبِهِمْ، فَاضطرَّ الصَّالحُ إِلى إِخراجِهِ مِنَ السِّجنِ، ومَنعَهُ عَنِ الخطابَةِ والوَعظِ والإفتاءِ والاجتماعِ بِالنَّاسِ، ولَكنَّ الشَّيخَ العِزَّ لَمْ يَطقْ صبراً عَلى العيشِ في ظلِّ مَلكٍ لَمْ يَحترَمْ عُهودَ دينِهِ، ووالَى الَّذينَ كَفروا عَلى أَبناءِ جِلدتِهِ وأُمتِّهِ، فَتركَ دمشقَ وقَصدَ مِصرَ.

وإِنْ دَلَّ ذَلكَ عَلى شَيءٍ فَإِنَّما يَدلُّ عَلى شَجاعةِ الشَّيْخِ العِزِّ، وإِخلاصِهِ لِدينِهِ وأُمتِّهِ وقيامِهِ بِواجِبِهِ كَعالمٍ يَحملُ أَمانَةَ العلمِ والدِّين في تَقويمِ اعوجاجِ الحُكَّامِ، ومُعارَضَتِهِمْ إِذا تَراخوا عَن القيامِ بِمسؤولياتِهِمْ اتجاهَ الأُمَّةِ والدِّين والوَطنِ، وفَتحوا حدودَ البِلادِ وأَبوابَ المُدنِ عَلى مِصراعيها لِيَجوسَ خلالَها الأَعداءَ في حالةِ الحربِ أَو السّلمِ، وكَذلِكَ إِلى تَأييدِهِ ووقوفِهِ إِلى جانبِ الحُكَّامِ والمُلوكِ والسَّلاطِينِ المُخلصينَ والمُجاهدينَ الَّذينَ يُواجهونَ الغُزاةَ ويَقودونَ المُقاومَةَ الشَّعبيَّةَ والجَماهيريَةَ ضِدَّهُمْ، ولا يَتنازلونَ عَنْ شِبرٍ

واحدٍ مِنْ أَراضي البِلادِ، أَو يُفرِّطونَ بِحقٍّ واحدٍ مِنْ حُقوقِ الأُمَّةِ، وليسَ عَجباً أنْ يُلاقي سُلطانُ العُلماءِ عِندَ هذا الصِّنفِ مِنَ الحُكَّامِ كُلَّ حَفاوةٍ وإكرامٍ.

❋ ❋ ❋

وَصلَ الشَّيْخُ العِزُّ مصرَ سنةَ (639) هجريَّةً، فَرحَّب بِهِ أَهلُ مِصرَ تَرحيباً حارّاً، وأَنزلَهُ المَلكُ الصَّالحُ نجمُ الدِّين أَيوبُ مَنزلاً كَريماً تَقديراً لِمواقفِهِ المُشرِّفَةِ، ولِجهادِهِ بِكلمةِ الحَقِّ المُبينِ لِخيانَةِ الصَّالحِ إسماعيلَ حاكمِ دمشقَ، وكانَ الشَّيْخُ العِزُّ قَدْ مَرَّ عَلى مَدينَةِ القُدسِ وأَشعلَ في نفوسِ أَهلِها الغيرَةَ والحميَةَ لِمقارعَةِ الأَعداءِ، والوقوفَ إِلى جانبِ الملكِ نَجمِ الدِّين لِمواجهةِ المُؤامراتِ والدَّسائِسِ الَّتي يَنسُجُها المَلكُ الصَّالحُ إسماعيلُ ضِدَّ البِلادِ والعِبادِ بالاتفاقِ مَعَ الصَّلِيبيينَ الَّذينَ ساموا أَهلَها مِنْ قَبلُ سوءَ العذابِ.

وسُرعانَ ما أَسندَ المَلكُ الصَّالحُ نَجمُ الدِّين إلى الشَّيْخِ العِزِّ الخِطابَةَ والوَعظَ والتَّدريسَ في جامعِ مصرَ الكبيرِ (جامعِ عَمرو بنِ العاصِ)، كَما ولاهُ مَنصبَ قاضي القُضاةِ، فَكانَ سُلطانُ العُلماءِ أَهلاً لِهذِهِ المَناصبِ، وقامَ بِحقِّها وأَمانتِها خيرَ قيامٍ انطلاقاً مِنَ الشُّعورِ بِالواجبِ والمَسؤوليَّةِ، ومُنذُ الوَهلةِ الأُولى لِتوليهِ منصبِ القَضاءِ، حرصَ عَلى تَنفيذِ أَحكامِ الشَّرْعِ بِالأُمراءِ والقوَّادِ وحاشيَةِ المَلكِ وأَعوانِهِ، قَبلَ تَنفيذِها بِعامَّةِ النَّاسِ، فَلاحَظَ أَنَّ الأُمراءَ المَماليكَ الَّذينَ يُمثِّلونَ عِمادَ حُكمِ المَلكِ الصَّالحِ نَجمِ الدِّين، بَيدِهِمْ مَقاليدُ الأُمورِ، ويَتصرَّفونَ في شُؤونِ البِلادِ والعِبادِ كَما يُريدونَ، ويَبيعونَ ويَشترونَ بِأَموالِ بيتِ مالِ المُسلمينَ بِكُلِّ حُريَّةٍ وإِرادةٍ، ويُولونَ ويَعزلونَ حسبَ ما تُمليهِ عليهِمْ مَصالحُهُمْ

وأَهواؤُهُمْ، وهذا يَتعارضُ مَعَ أَحكامِ الشَّرْعِ الَّتي تَنصُّ على أَنَّ المَملوكينَ الأَرقاءَ فاقدونَ لأَهليَّةِ التَّصرُّفِ لأَنَّهُمْ لا يَملكونَ حُريَّتَهُمْ، وقد كانَ الملكُ يَملكُهُمْ مِلكَ اليَمينِ، إذ اشتراهُمْ وأَنفقَ عَلى تَربيتِهِمْ وتَعليمِهِمْ مِنْ أَموالِ الدَّولةِ، ولِهذا أَفتَى بِعدمِ شَرعيَّةِ تَصرُّفاتِهِمْ في البيعِ والشِّراءِ والزَّواجِ والطَّلاقِ، وبِعدمِ أَهليَّتِهِمْ في الولايَةِ أَو تَرؤُّسِ الحُكمِ والسُّلطةِ في بِلادِ الإِسلامِ، ولَمْ يَكُنْ ليَخشىَ نِقمَتَهُمْ أو غَضَبَهُمْ عليهِ.

ويَذكُرُ الباحثُ «عبدُ الرَّحمنِ الشَّرقاويُّ» في كتابِهِ «أَئِمَّةِ الفقهِ التِّسعةِ»: أنَّ الشَّيخَ العزَّ لَمْ يمضِ لهمْ بيعاً ولا شراءً، حتَّى تكالبوا عليهِ وشَكوهُ إلى المَلكِ الصَّالحِ الَّذي لَمْ تُعجِبْهُ فَتوَى الشَّيْخِ العِزِّ، فَذَهبَ إلى الشَّيْخِ يَسألهُ أنْ يعدِّلَ منْ فَتواه. فَطلبَ مِنهُ الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ:

«نعقدُ لكم مجلِساً ونُنادي عليكم (بالبيعِ) لبيتِ مالِ المسلمينَ»[1]. فاستشاطَ نائبُ السَّلطنةِ غَضباً، وكانَ من المماليكِ، وأقسمَ ليقتلنَّ الشيخَ بسيفهِ. فذهبَ إليه النائبُ مع جماعةٍ من الأمراءِ فطرقَ بابَهُ، ففتحَ البابَ ابنُه عبدُ اللَّطيفِ، فراعَهُ منظرُ نائبِ السَّلطنةِ إذ رأى سيفَهُ مسلولاً، والغضبُ يعلُو وجهَهُ فدخلَ على والدِه وقالَ:

انجُ بنفسكَ، إنَّه القتلُ.

فردَّ عليه الشَّيخُ بقوله: أبوكَ أقلُّ من أنْ يُقتلَ في سبيلِ اللهِ.

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة.

ثمَّ خرجَ، وحينَ وقعَ بصرُه على النائبِ، سقطَ السيفُ من يدِ النائبِ وارتعدَ. فبكَى وسألَ الشيخَ أن يدعوَ له، وقالَ:

يا سيِّدي، ماذا ستفعلُ؟

قال: أُنادي عليكم وأبيعُكمْ.

إلا أن السَّلطانَ لم يذعنْ لحكمِ الشيخِ، فأرسلَ إليه من يتلطَّفُ إليه، وبعدَ إصرارِ الشيخِ أخبرَهُ الرسولُ أن السلطانَ لنْ يسمحَ ببيعِ الأمراءِ، وأمرُ السلطانِ واجبٌ، وهو فوقَ قضاءِ الشيخِ عزِّ الدِّينِ! وعلى أيَّةِ حالٍ فليسَ للشيخِ أن يدخلَ في أمورِ الدولةِ، فشؤونُ الأمراءِ لا تتعلقُ به، بل بالسلطانِ وحده! فأنكرَ الشيخُ تدخلَ السلطانِ في القضاءِ وقامَ فجمعَ أمتعتَهُ ووضَعها على حمارٍ. ووضعَ أهلَه على حميرٍ أخرى، وساقَ الحميرَ ماشياً.

إلى أين يا شيخ؟

قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فيمَ المقام بأرضٍ يُستضعفُ فيها أهلُ الشَّريعةِ، ويُعتدى فيها على القَضاءِ؟!

فَتجمَّعَ أَهلُ مصرَ وراءَهُ وتَبعَهُ العُلماءُ والصُّلحاءُ، فَلَمْ يَجِد المَلكُ بُدّاً مِنَ النُّزولِ عِندَ رَأيِ سُلطانِ العُلماءِ، فَركبَ ولَحقَ بِهِ واسترضاهُ.

وفي اليَومِ التَّالِي جُمعَ الأُمراءُ المَماليكُ ـ ومِنْ بينِهِمْ نائِبُ المَلكِ ـ ونوديَ عليهِمْ بِالبيعِ أَمامَ النَّاسِ، فَكانَ الشَّيْخُ العِزُّ يَذكرُ الثَّمنَ، ويَقومُ الملكُ بِدفعِهِ، ويُودعُهُ الشَّيْخُ بِدورِهِ في بيتِ مالِ المُسلمينَ، ثُمَّ يَقومُ الملكُ بِتحريرِ المَملوكِ ويَهبُ لَهُ الحُريَّةَ أَمامَ

النَّاسِ، حَتَّى حَرَّرَ جميعَ الأُمراءِ المَماليكِ. فَكانَ لِهذِه الحادثةِ صَداها في جَميعِ البِلادِ، وعرفَ القَريبُ والغَريبُ، والقاصي والدَّاني، شَجاعَةَ الشَّيْخِ العِزِّ وتَقواهُ، وقُوَّةَ شَكيمتِهِ في الحَقِّ.

❁ ❁ ❁

ومِن المواقفِ الخالدةِ الَّتي سَطَّرها التَّاريخُ بِأَحرفٍ مِنْ نورٍ عَلى صَفحاتِهِ لِسلطانِ العُلماءِ، والَّتي تُعتبرُ مِثالاً يُحتذَى بِهِ لِكُلِّ عالمٍ يَسعَى إِلى مَرضاةِ الخالقِ القَديرِ، أَنَّهُ دَعا النَّاسَ إِلى الجِهادِ ضِدَّ جَحافِلِ الغُزاةِ التَّتارِ الَّذينَ اجتاحوا بِلادَ العربِ والإِسلامِ وسَفكوا الدِّماءَ، وأَهلكوا الحرثَ والنَّسلَ، وكانَ لَهُ يَدُ السَّبقِ في قيادةِ حملةِ التَّعبئَةِ الماديَّةِ والمَعنويَّةِ لِتجهيزِ الجيوشِ الإِسلاميَّةِ ضِدَّهُمْ، كما كانَ لَهُ نَصيبٌ مِنْ عَواملِ الانتصارِ عليهِمْ وتَخليصِ العالمِ مِنْ شَرِّهِمْ بَعدَ هزيمتِهِمْ في معركَةِ عينِ جالوتَ عَلى يَدِ القائِدِ المُظفَّرِ السُّلْطانِ قِطزَ.

فَعندما جمعَ السُلطانُ قطزُ كبارَ العُلماءِ والأَعيانِ وعَلى رأسِهِمْ سُلطانُ العُلماءِ، مِنْ أَجلِ القيامِ بِحملةِ جمعِ التَّبرُّعاتِ مِنَ الشَّعبِ المصريِّ لِشراءِ العتادِ والسِّلاحِ وتَجَهيزِ الجيشِ بِها إِعداداً لِلمواجهةِ الحاسمةِ مَعَ جيوشِ التَّتارِ، أَفتَى سُلطانُ العُلماءِ بِعدمِ جوازِ جمعِ التَّبرُّعاتِ مِنْ عامَّةِ الشَّعبِ، حَتَّى يبيعَ أُمراءُ المَماليكِ قُصورَهُمْ ومَراكبَهُم الفاخرةَ، ويَتبرَّعونَ بِأَثمانِها لِشراءِ العتادِ والسِّلاحِ، وحَتَّى يَردُّوا ما يَكنزونَهُ مِنْ أَموالٍ وجواهرَ ثَمينَةٍ

إلى بيتِ مالِ المُسلمينَ، فَعملَ المَماليكُ بِرأيِهِ، وكانَ السُّلْطانُ قطزُ أَوَّلَ مَنْ فَعلَ هذا. فَجُمعَتْ أموالٌ عَظيمةٌ لَمْ تكُنْ بِالحُسبانِ.

وكانَ لِهذا العملِ الجَريءِ الَّذي قامَ بِهِ سُلطانُ العُلماءِ أَثرُهُ الواضحُ في تَحقيقِ النَّصرِ عَلى الأعداءِ، وفي تَلقينِ الأُمَّةِ دروساً وعِبراً في فَنِّ تَحقيقِ النَّصرِ في المَعاركِ والحروبِ.

ومِنْ ثَمَّ قضَى الشَّيْخُ العزُّ حياتَهُ كُلَّها في جِهادٍ دائِمٍ بِعلمِهِ وعَملِهِ مِنْ خلالِ الكلمةِ الحرةِ، والقلمِ الشجاعِ، والرَّأي الثَّاقب، وحملِ السلاحِ ضد الفرنجَةِ الصَّلِيبيينَ ؛ للمحافظةِ على حقوقِ الأمَّة حتى لَقيَ ربَّه في (10) من جمادى الأولى سنةَ (660) هـجريَّةً عَنْ عُمرٍ ناهزَ الثَّالثَةَ والثَّمانينَ، وأَورثَ الأمَّةَ مِنْ بَعدهِ العديدَ مِنَ مُؤَلَّفَاتهِ الهامَّةِ في مُختلفِ عُلومِ الدِّينِ والشَّريعَةِ، ومَنَّ عَلى المُسلمينَ تلاميذَهُ الَّذينَ حملوا مِنْ بَعدهِ مِشعلَ العلمِ ورايَةَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وصارَ سُلطانُ العُلماءِ مضربَ مثلٍ لِلأُمَّةِ في التَّواضعِ والإِحسانِ حَتَّى قيلَ: «لَستَ مِنَ العَوام ولو كُنتَ ابنَ عَبدِ السَّلامِ».

جَلالُ الدِّينِ الرومِيُّ
داعيةُ الحبِّ والإيمانِ
(604 ـ 672هـ)

جلالُ الدِّين الرُّوميُّ داعيَةُ الحُبِّ والإيمانِ، وسُلطانُ عُلماءِ عَصرِهِ، وسيمفونيَّةُ الزَّمانِ الخالدةُ الَّتي صَدَحَتْ بِأَسمَى أَلحانِ الحُبِّ الإلهيِّ الَّذي يَعرجُ بِالرُّوحِ إلى العوالمِ الصَّمدانيَّةِ في السَّماءِ، وكَذلِكَ رَدَّدَتْها قلوبُ العارفينَ والمُتقينَ، ودَوَى صداها في محرابِ الحياةِ والكونِ كَنشيدِ أَملٍ يَحدو بِهِ الشَّادي إلى عالمِ الخُلودِ في سبحاتٍ دائمةٍ لَمْ تَنقطعْ في زمنٍ مِنَ الأَزمانِ، ولَمْ تَندثرْ عَلى تَعاقبِ العصورِ والأَجيالِ.

وصَحيحٌ أَنَّ الَّذينَ يَعرفونَ شَيئاً عَنْ حياةِ الشيخ جلالِ الدِّين الرُّوميِّ هُمْ قِلةٌ بينَ المُسلمينَ اليَومَ، إلَّا أَنَّ التَّاريخَ يَذكرُهُ دائِماً كُلَّما أطلَّ بِوحيِهِ عَلى أَنَّهُ أَحدُ الرُّوادِ المُصلحينَ مِنْ عُظماءِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ الَّذينَ لَعبوا دوراً هامّاً في تاريخِ الدَّعْوَةِ والإصلاحِ وتَجديدِ الفكرِ الإيمانيِّ، وإيقاظِ الشُّعورِ الرُّوحيِّ والدِّيني والوجدانيِّ في الأَوقاتِ الحرجَةِ الَّتي كانَتْ تَنتابُ أُمَّةَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بينَ الفَترةِ والأُخرَى، وتُنذرُ بِانحدارِها نَحوَ مَهاوي الرَّدَى والضَّياعِ. وما أَكثرَ ما مَرَّتْ بِهِ أُمَّتُنا بِهكذا ظروفٍ عبرَ تاريخِها الطَّويلِ، وما تزالُ!

فَقَدْ غَزَتِ العالمَ الإسلاميَّ، موجاتٌ كاسحةٌ مِنَ التَّفكيرِ الفَلسفي الجافِّ، البَعيدِ كُلّ البُعدِ عَنْ روحِ الوَحيِ والإيمانِ، وباتَ التَّفكيرُ العَقليُّ عِندَ كثيرٍ مِنَ المُسلمينَ يَخضَعُ لمبادئِ المَنطقِ اليونانيِّ، الَّذي يُنكرُ كُلَّ معرفَةٍ لا تَأتي عَنْ طريقِ الحواسِّ الخَمسةِ، واصطَبَغتْ حياةُ المُسلمينَ بِصبغةٍ ماديَّةٍ صَرفَةٍ غابَتْ فيها العاطفةُ الدِّينيَّةُ، وشَطَّ عَنها الشُّعورُ الإيمانيُّ والرُّوحيُّ الَّذي هوَ مصدرُ القُوَّةِ لأمَّتِنا، وأساسُ النَّهضَةِ لِحضارَتِنا، وعُنوانُ الخُلودِ لِمبادئِنا ولِقِيَمِنا الإسلاميَّةِ العامرةِ بِالحبِّ والإيمانِ والسَّلامِ.

وهَكذا أَصبَحتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ بِحاجَةٍ إلى رَجلٍ مُفكر يَبُثُّ فيها العاطفةَ الدِّينيَّةَ، ويُعيدُ إليها روحَ التَّفاؤُلِ بِالسَّماءِ، ويَكنسُ ما رانَ عَلى قُلوبِ أَبنائِها مِنْ عواطفَ دنيويَّةٍ وماديَّةٍ غايَتُها إرضاءُ الأَهواءِ والشَّهواتِ، ويَدفعُ عَنْ نفوسِهِم المشاعرَ والنَّزَعَاتِ الماديَّةِ الَّتي حالَتْ بينَهُمْ وبينَ مَحبَّةِ اللهِ وطاعَتِهِ، فَكانَ جَلالُ الدِّين الرُّوميُّ ذَلكَ الرَّجلُ والمُفكرُ الشَّاعرُ الَّذي أعادَ لِروحِ الأُمَّةِ نَبضَها الإسلاميَّ، وأشعلَ في قلوبِ أَبنائِها الحُبَّ الإلهيَّ، وحَفَّزَهُمْ نَحوَ التَّطلعِ إلى مرضاةِ اللهِ ورَسولِهِ واتِّباعِ هَديِهِما.

وكانَ كتابُهُ الشِّعري والفَلسَفي «المَثنوي المَعنويُّ» ردَّةً جَديدةً في عالمِ الفكرِ، وعَودةً قَويَّةً إلى مَنهجِ التَّفكيرِ الرَّباني الَّذي قوامُهُ الحُبُّ والتَّسليمُ المُطلقُ عَنْ وَعي وإدراكٍ لِلإلهِ الخالقِ العَظيمِ، فَاقْتَدى بِهِ أَبناءُ الأُمَّةِ، ورَتَّلوا ما جاءَ في ثنايا فكرِهِ وفلسَفَتِهِ مِنْ تَعظيمِ اللهِ، وإفرادِ الحُبِّ والطَّاعةِ لَهُ تَرتيلاً، بَعدَ أَنْ خَلصوا مِنْ ملوثاتِ الفِكرِ الفَلسفيِّ الماديِّ، الَّذي لا يُثيرُ إلَّا الشُّكوكَ والأَوهامَ نَجيّاً.

فَصارَ كتابُ داعيَةِ الحُبِّ والإيمانِ مَصدراً هاماً في إذكاءِ الشُّعورِ الدِّينيِّ، وإثارةِ العاطفةِ الإسلاميَّةِ، وكَذلِكَ مَرجعاً ثَريّاً لِإنماءِ التَّفكيرِ العَقلي والفَلسَفي القائِمِ عَلى الحُبِّ والإيمانِ، وغايَتُهُ سَعادةُ الإنسانِ في الدُّنيا والآخرةِ.

❋ ❋ ❋

يَرجعُ أَصلُ جلالِ الدِّين الرُّوميُّ، إلى عائِلةٍ عربيَّةٍ مُسلمةٍ، استوطَنَتْ وسَكنَتْ بِلادَ فارس عَقبَ الفَتحِ الإسلاميِّ لَها في عهدِ الخليفَةِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، ويَنتهي نسبُ هذِهِ العائِلةِ المُتديِّنةِ إلى الصَّحَابِيِّ الجليلِ أَبي بَكرٍ الصِّديقِ ﷺ، وهذا ما يُؤكِّدُ عُروبَتَها القَديمةَ.

واسمُ جَلالُ الدِّين ونَسبُهُ هُوَ: العارفُ بِاللهِ العَلَّامةُ الحكيمُ المُتصوِّفُ أَبو مُحمَّدٍ سُلطانُ ولدِ جلالِ الدِّينِ مُحمَّدِ بنِ بَهاءِ الدِّين مُحمَّدِ بنِ حُسينِ بنِ أَحمدَ بنِ قاسمِ بنِ مُسيّبِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبي بَكرٍ الصِّديقِ، وقَدْ عُرِفَ بِالرُّوميِّ، لأَنَّهُ قَضَى مُعظمَ حياتِهِ في مَنطقةٍ تُسَمَّى «الرُّوم» وهيَ في تركيا حاليّاً.

ولدَ جَلالُ الدِّين سنةَ (604) هجريَّةً في مَنطقةِ بَلخَ في خُراسانَ ـ تقع في أَفغانستانَ حاليّاً ـ وكانَتْ بَلخُ تابعةً لِلإمبراطوريَّةِ الخوارزميَّةِ الخُراسانيَّةِ، وكانَ والدُ جَلالِ الدِّين، «بَهاءُ الدِّين ولَد» مِنْ كبارِ عُلماءِ عَصرِهِ في بِلادِهِ، وقَدْ لُقِّبَ بِسُلطانِ العُلماءِ لِما لَهُ مِنْ سعةٍ في العلمِ والمعرفَةِ بِعلومِ الدِّين والقانونِ والتَّصوُّفِ، وقَدْ حُظيَتْ أُسرتُهُ بِمُصاهرةِ البيتِ الحاكمِ في خَوارزمَ، فَأُمُّهُ ابنةُ «خَوارِزْمَ شاهٍ علاءِ الدِّين مُحمَّدٍ» وتُدعَى «مُؤمنة خاتون»، فَنشأَ جَلالُ

الدِّين في بَلدتِهِ بلخَ، ورُبيَ مِنْ قِبلِ أَبيهِ عَلى العلمِ والإِيمانِ، ولَمْ يَكَدْ يَبلغُ سِنَّ الصِّبا حَتَّى هاجرَ معَ عائِلتِهِ إِلى مَدينةِ نيسابورَ في بِلادِ فارس، بِسببِ الاجتياحِ المَغولي لِمملكةِ خَوارِزْمَ، وقيلَ: بِسببِ خلافٍ نَشبَ بينَ والدِهِ وبينَ ملكِ خَوارِزْمَ، وفي نيسابورَ التَقَى جلالُ الدِّين معَ الشَّاعرِ الصُّوفيِّ الفارسيِّ «فَريدِ الدِّين العَطارِ» وأَهداهُ ديوانَهُ «أَسرار نامة»، الَّذي أَثَّرَ تَأثيراً كبيراً عَلى الشَّابِّ «جلالِ الدِّين» المُتحمِّسِ بِشغفٍ إِلى العلمِ، ودَفعَهُ لِلغَوصِ في عالمِ الشِّعرِ والرُّوحانياتِ والصُّوفيَّةِ، ثُمَّ سافرَ معَ عائِلتِهِ إِلى بَغدَادَ، وهُناكَ لُقِّبَ بِجلالِ الدِّين، ثُمَّ تابعوا التِّرحالَ إِلى سوريَّا، ومِنها إِلى مكَّةَ المُكرَّمةِ، ثُمَّ واصلوا المَسيرَ إِلى بِلادِ الأَناضولِ واستَقرُّوا في «كَرمانَ» وأَقاموا فيها سَبعَ سَنواتٍ حيثُ توفِّيَتْ والدتُهُ، وفيها تَزوَّجَ جلالُ الدِّين بِزوجتِهِ «جَوهر خاتون» وأَنجبَ مِنها وَلديهِ «سُلطانَ ولد» و«علاءَ الدِّين شَلَبي»، وعندَ وفاةِ زَوجتِهِ تزوَّجَ مِنِ امرأةٍ أُخرَى وأَنجبَ مِنها ابنهُ «أَميرَ العلمِ شَلبي» وابنتَهُ «مَلكَةَ خاتون».

وفي عامِ (626) هجريَّةً تَلَقَّى الشَّيْخُ، «بَهاءُ الدِّين» والدُ جلالِ الدِّين، دعوةً مِنَ السُّلْطانِ السّلجوقيِّ، «عَلاءِ الدِّين كَيقباد»، سُلطانِ الرُّومِ، لِلإِقامةِ في «قونيَةَ» عاصمةِ الدَّولةِ السّلجوقيَّةِ، فَرافَقَ جَلالُ الدِّين والدَهُ إِلى هُناكَ، والتَقَى في قونيَّةَ بِالعالمِ المُحقِّقِ «برهانِ الدِّين التِّرمذيِّ» الَّذي كانَ أَحدَ تَلاميذِ والدِهِ ـ وهوَ غيرُ التِّرمذيِّ المُحدِّثِ المَشهورِ ـ واستفادَ مِنْ علمِهِ كثيراً.

كما تَرأَّسَ والدُهُ، إِدارةَ المَدرسَةِ السُّلطانيَّةِ، في قونيَّةَ حَتَّى وفاتِهِ سنةَ (638) هجريَّةً، فَخلفَهُ ابنهُ جلالُ الدِّين في التَّدريسِ والوَعظِ والإِرشادِ فيها، وكانَ جلالُ الدِّينَ قبلَ ذَلكَ

قَدْ قامَ بِرحلةٍ علميَّةٍ استمرَّتْ أَربعَ سَنواتٍ إِلى بِلادِ الشَّامِ، والتَقَى فيها بِأَعظمِ العقولِ الدِّينيَّةِ والعلميَّةِ، ثُمَّ عادَ إِلى قُونيةَ سنةَ (643) هجريَّةً.

❋ ❋ ❋

كانَتْ شَخصيَّةُ جلالِ الدِّين العلميَّةُ ـ وهوَ يَعملُ في التَّدريسِ والوَعظِ والإِرشادِ ـ تَتبلورُ مَعَ مرورِ السِّنين وتَتطوَّرُ في كِلا الجانبينِ: جانبِ العلمِ والعرفانِ، والرُّوحِ والعقلِ، حَتَّى حَصلَ ذَلكَ التَّحوُّلُ الهامُّ في شَخصيَّتِهِ، وغيَّرَ لَهُ مَجرَى حياتِهِ كُلّها، وقَلبَ لَهُ مسارَ اهتماماتِهِ رأساً عَلى عَقبٍ، فَفي سنةِ (642) هجريَّةً وصلَ إِلى قُونيَةَ العالمُ الزَّاهدُ المُتصوِّفُ، والشَّاعرُ الحكيمُ «شَمسُ الدِّين التَّبريزيُّ» قادماً مِنْ مَدينةِ تبريز في بِلادِ فارس باحثاً عَنْ شَخصٍ يَجدُ فيهِ خيرَ الصُّحبَةِ، فَوجدَ في جلالِ الدِّين الرُّوميِّ ضالَّتَهُ المَنشودةَ، ويُقالُ: إِنَّ جلالَ الدِّين خرجَ يوماً في موكبٍ حافلٍ بِالتَّلاميذِ والعُلماءِ، والنَّاسُ حولَهُ يَسأَلونَهُ ويَستفيدونَ منهُ، فَتقدَّمَ «شَمسُ الدِّين» مِنَ الرَّاكبِ المُحتفَلِ بِهِ، وسَأَلهُ:

ما المَقصودُ مِنَ الرِّياضيَّاتِ والعلومِ؟

فَأَجابَهُ جَلالُ الدِّين: الاطِّلاعُ عَلى آدابِ الشَّرْعِ.

فقال لَهُ «شَمسُ الدِّين» بِكُلِّ هدوءٍ وثَقةٍ: لا، بَل الوصولُ إِلى المَعلومِ.

وأَنشدَ بيتَ الحكيمِ «الثُّنائيِّ» الَّذي يَقولُ فيهِ:

العلمُ إِذا لَمْ يُجرّدْكَ مِنْ نَفسِكَ فَالجهلُ خيرٌ منهُ

فَلَمْ يَفترقِ الصَّاحبانِ منذُ لِقائِهِما، وعكفَ جَلالُ الدِّين معَ صاحبِهِ وأُستاذِهِ الجَديدِ،

وامتلأَتْ نَفسُهُ منهُ بِروحٍ جَديدةٍ، وانكشَفَ لَهُ عالمٌ جَديدٌ مِنَ الحَقائِقِ والأَحوالِ والأَذواقِ، ودخَلَ معهُ في خلوةٍ استمرَّتْ سِتَّةَ أَشهُرٍ، وتَشاغلَ معهُ عَنْ تلاميذِهِ ومُريديهِ، وقَدْ أَشارَ جلالُ الدِّين في أَشعارِهِ إِلى فَضلِ التَّبريزيِّ عليهِ بِقولِهِ: «إِنَّ الشَّمسَ التّبريزيَّ هوَ الَّذي أَراني طريقَ الحقيقَةِ، وهوَ الَّذي أُدينُ لَهُ في إِيماني ويَقيني».

ويَقولُ «سُلطانُ ولد»، ابنُ جلالِ الدِّينِ: «إِنَّ الأُستاذَ الكبيرَ أَصبحَ تلميذاً صَغيراً لِلشَّيخِ التَّبريزيِّ، ويَتلقَّى منهُ الدُّروسَ كُلَّ يَومٍ، إِنَّهُ وإِنْ كانَ نابغةً في العلومِ، ومُقدَّماً في الزَّهادةِ، ولَكنَّهُ رأَى عندَهُ علماً جَديداً لا عهدَ لَهُ بِهِ».

وبِسبَبِ انصرافِ جلالِ الدِّين الكبيرِ إِلى شَيخِهِ الجديدِ، صارَ الشَّمسُ التَّبريزيُّ يَتعرَّضُ لِلانتقاداتِ والمُضايقاتِ مِنْ قِبلِ تَلاميذِ جلالِ الدِّين لأَنَّهُ شَغلهُ عَنهُمْ، وكادَتْ أَنْ تَحدثَ في قونيَةَ فتنةٌ كبيرةٌ بِسببِ ذَلكَ، فَخرجَ «شَمسُ الدِّين التَّبريزيُّ» مِنها ولَمْ يَعُدْ إِليها منذُ ذَلكَ الحينِ، وأَحدثَ خروجَهُ غَمّاً وحُزناً في نَفسِ جلالِ الدِّين، سُرعانَ ما فاضَ حُزنُهُ العميقُ، بِأَشعارٍ وموسيقَى روحيَّةٍ ورَقصاتٍ تُعبِّرُ عَن الهيامِ في محبَّةِ اللهِ وذِكرِهِ بِطريقَةٍ نُسبَت إِليهِ، وصارَ لَهُ أَتباعٌ ومريدونَ فيها تُعرَفُ بِالطَّريقةِ (المولويَّةِ).

ومِنْ ثمَّ، خرجَ جلالُ الدِّين يَبحثُ عَنْ شَيخِهِ التَّبريزيِّ بِرفقةِ بَعضِ أَصحابِهِ، فَقدمَ دمشَقَ وأَشعلَ قلوبَ أَهلِها مَحبَّةً وغَراماً. فَتعجَّبَ النَّاسُ مِنْ حالِهِ، وأَخذوا يَتساءلونَ عَنْ شَيخِهِ التَّبريزيِّ ويَقولونَ:

مَنْ هذا الرَّجلُ الَّذي هامَ بِهِ نابغةُ عَصرِهِ ونادرةُ زمانِهِ هذا الهيام؟

ولَمَّا يَئسَ جلالُ الدِّين مِنَ العُثورِ عَلى شَيخِهِ سَكنَتْ نَفسُهُ وقالَ:

«لا فرقَ بيني وبينَ شَمسِ الدِّين، إنْ كانَ شَمساً فَأَنا ذرَّةً، وإنْ كانَ بَحراً فَأَنا قَطرةً، ونورُ الذَّرةِ مِنَ الشَّمسِ، وحياةُ القَطرةِ مِنَ البَحرِ».

ورجعَ إِلى قونيَةَ، وأضاءَ قلوبَ النَّاسِ بِنورِ محبَّةِ اللهِ، وأَطربَ نفوسَهُمْ بِأَلحانِ ذِكرِهِ ﷻ.

❋ ❋ ❋

مَكثَ «جلالُ الدِّين» في قونيَةَ بَعدَ عودتِهِ مِنْ دمشقَ وهوَ غيرُ بَعيدٍ عَنْ ذكرياتِهِ مَعَ شَيخِهِ التّبريزيِّ، يُنشدُ الأَشعارَ الخالدةَ في الحُبِّ الإِلهيِّ، وتَعرجُ روحُهُ في كَمالاتِ العالمِ العُلويِّ، وتَسبحُ نَفسُهُ في أَنوارٍ مِنَ التَّجلي الأَعظمِ في أَحوالِ الوجدِ والهيامِ والقُربِ مِنْ حَضرةِ العنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، والإِشراقاتِ الصَّمدانيَّةِ، فَيفيضُ عَلى مَنْ حوله بِقبساتٍ مِنَ الحُبِّ والإقبالِ عَلى اللهِ ومُلازمةِ جنابِ الذَّاتِ الإِلهيَّةِ وتَقديسِها، وصارَتْ مدينةُ قونيَّةَ قبلَةَ المُريدينَ القادمينَ إِليهِ مِنْ كُلِّ مكانٍ، وحَضرةً لِلعابدينَ، أذنَ اللهُ أَنْ يُسبَّحَ لَهُ فيها ويُذكرَ فيها اسمُهُ في الغُدوِّ والآصالِ.

وبِسببِ إِيمانِهِ العَميقِ بمبادئِ وتَعاليمِ دينِهِ، وبِسَبَبِ ما يُكنُّهُ في نَفسِهِ مِنَ محبَّةٍ وتَسامحٍ حيالَ الآخرينَ، استطاعَ جَلالُ الدِّينَ، أَنْ يَجذبَ أَتباعَ الدّياناتِ الأُخرَى إِلى الإِسلامِ مِنْ يَهودٍ ونَصارَى ووَثنيينَ، وكانَتْ فَلسَفتُهُ الرُّوحيَّةُ الصُّوفيَّةُ، مَبنيَّةٌ عَلى أَساسِ التَّسامُحِ والاعترافِ بِالآخرِ، فَكانَ يَرَى أَنَّ الأَديانَ السَّماويَةَ جَميعاً حَقيقيَّةٌ في مَنهجها الإِيمانيِّ، وتَجتمعُ فيما بَينَها بِإِفرادِ اللهِ بِالمحبَّةِ والتَّعظيمِ والتَّقديسِ، وحَضِّ النَّاسِ عَلى الخيرِ والإِحسانِ، ولِهذا عُدَّ جلالُ الدِّين مِنَ المُصلحينَ والعَظماءِ في تاريخِ الإِنسانيَّةِ الَّذينَ دَعَوا

الإنسانيَّةَ إلى التَّسامحِ الدينيِّ ونبذِ الخلافاتِ والاجتماعِ عَلى مَحبَّةِ اللهِ، وكَذلِكَ إلى تَركِ التَّفكيرِ الفَلسفي المادِّي والعَقلي المُجرَّدِ عَنْ أَيِّ عاطفةٍ إنسانيَّةٍ، وكانَ لِدعوتِهِ ولِتربيتِهِ مُريديهِ عَلى هذِهِ المبادئِ الرَّاشدةِ، أَثرٌ إنسانيٌ عَميقٌ ليسَ عَلى صعيدِ المُجتمعِ الإسلاميِّ وحسب! وإنَّما عَلى صَعيدِ المجتمعِ الإنسانيِّ عامَّةً.

ومِنْ هذا المُنطلقِ احتفلَتْ مُنظمَّةُ (اليونسكو) العالميَّةُ في الأَعوامِ المُنصرمةِ بِالذِّكرَى المُئويَةِ الثَّامنةِ لِوفاتِهِ، وكانَ ذَلكَ نتيجةَ جهودٍ كبيرةٍ بَذلَها المُستشرقونَ في تَرجمةِ أَشعارِهِ ومقالاتِهِ إلى اللُّغاتِ الأُوربيَّةِ، وإقبالَ الأُوربيينَ عَلى قِراءَتِها بِشغفٍ وعِنايَةٍ، لِأَنَّهُمْ رَأَوا فيهِ شاعرَ المَحبَّةِ والتَّسامحِ والسَّلامِ، وقَدْ نَقلَتْ وسائِلُ الإعلامِ العربيَّةِ عَنْ إحدَى الصُّحفِ الغربيَّةِ، أَنَّهُ بيعَتْ في انجلترا وَحدَها خِلالَ أَشهرٍ قليلةٍ قُرابَةَ مليونِ نَسخةٍ مِنْ أَشعارِ مولانا جَلالِ الدِّين الرُّوميِّ، وكانَ مِنْ أَبرزِ المُستشرقينَ الذينَ تَرجموا أَعمالَهُ الخالدةَ في التَّصوُّفِ والحُبِّ الإلهيِّ والعرفانِ البروفيسورُ «كولمان باركِس» راجياً أَنْ تُسهمَ تَرجماتُهُ في إذابَةِ الجليدِ بينَ الأَمريكيينَ والمُسلمينَ، خُصوصاً أَنَّ التَّرجمةَ تَحملُ رسائِلَ حُبٍّ إلى كافَّةِ الشُّعوبِ والأَديانِ.

❁ ❁ ❁

لا ريبَ أَنَّ جلالَ الدِّين الرّوميَّ مِنْ أَساطينِ شُعراءِ الصُّوفيَّةِ الَّذينَ تربَّعوا عَلى عرشِ الحُبِّ الإلهيِّ الخالدِ، وكانَ يَرَى أَنَّ الرُّوحَ شعارُها دائِماً العِشقُ. والعِشقُ وَحدَهُ هوَ الَّذي

يُثيرُ الرُّوحَ ويُحرِّكُ مكامنَ النَّفسِ لِلإقبالِ عَلى اللهِ. ولِهذا يَدعو الإِنسانَ دائِماً إِلى أَنْ يَعشقَ حَتَّى الثُّمالةِ، لأَنَّ الوجودَ كُلَّهُ عشقٌ.

فَيقولُ مُخاطباً البشريَّةَ أَجمع: «إِنَّ حكايَةَ الحُبِّ لا تَنتهي، وتَفنَى الدُّنيا ولا تَنقَضي عَجائِبُهُ، لأَنَّ الدُّنيا لَها نِهايَةٌ وغايَةٌ، والحُبُّ وَصفُ مَنْ لا يَفنَى ولا يَموتُ».

فَلقَدْ أَحبَّ الرُّوميُّ اللهَ فَأَحبَّهُ اللهُ ورَفعَ لَهُ مِنْ قَدرِهِ بينَ النَّاسِ، وكَذلِكَ أَحبَّ النَّاسَ فَبادلَهُ النَّاسُ الحُبَّ والتفُّوا حولَهُ في حضرةِ القُربِ مِنَ اللهِ، ولَمْ يَزلِ الحُبُّ شغلَهُ الشَّاغلَ وهوَ عَلى فِراشِ موتِهِ، فَإِذا عادَهُ أَحدُهُمْ ودَعا لَهُ بِالشِّفاءِ، اعتذرَ مِنهُ وقالَ: «هَنأَكَ اللهُ، وما يُضرُّكَ إِذا رُفعَ الحجابُ بينَ الحبيبِ والمَحبوبِ؟!».

وفاضَتْ روحُهُ الطَّاهرةُ، عندَ غروبِ الشَّمسِ لِخمسٍ خَلونَ مِنْ جَمادى الآخرةِ سنةَ (672) هجريَّة، عَلى أَلحانِ الحُبِّ الَّتي شَدا بِها قلبُهُ الهائِمُ في رِياضِ محبَّةِ الذَّاتِ الإِلهيَّةِ عَلى أَوتارِ الخَلجاتِ الأَخيرةِ مِنْ نَفسِهِ، وشُيِّعَتْ جنازَتُهُ عَلى أَصداءِ كَلماتِ السَّماءِ، حيثُ كانَ اليَهودُ والنَّصارَى يَتلونَ التَّوراةَ والإِنجيلَ، وكانَ المُسلمونَ يُنحُّونَهُمْ فَلا يَنتحونَ.

وكما ذَكرَ المُؤَرِّخُونَ أَنَّ هذا الأَمرَ بَلغَ حاكمَ البَلدِ، فَقَالَ لِقَساوسَتِهِمْ ورُهبانِهِمْ:

ما لَكُمْ ولِهذا الأَمرِ، وإِنَّها لَجنازةُ عالمٍ مُسلمٍ؟

فقالوا: «بِهِ عرفْنا حَقيقَةَ الأَنبياءِ السَّابقينَ، وفيهِ رأَينا سيرَةَ الأَولياءِ الكاملينَ».

ويُقالُ: إنَّ جنازتَهُ خرجَتْ في الصَّباحِ الباكرِ، ووَصلَتْ إلى مَقبرةِ البَلدِ عندَ المَساءِ، ودُفنَتْ في اللَّيلِ، مِنْ كثرةِ ازدحامِ النَّاسِ عليها مِنْ أَتباعِ كُلِّ ديانةٍ.

وقَدْ تركَ لَنا جلالُ الدِّين آثارَهُ الخالدةَ، كَتراتيلِ عشقٍ لِلإِلهِ، يُردِّدُها فَمُ الزَّمانِ، في رِحلة الحياةِ ومحرابِ الوجودِ، وهيَ:

1 ـ كتابُ المَثنوي المَعنويِّ، وفيهِ مجموعةٌ مِنَ القَصائِدِ المُستوحاةِ مِنْ معاني القُرآنِ وقِصَصِهِ، ويُعتبرُ مِنْ أَهمِّ دواوينِ الشِّعرِ الصُّوفيِّ.

2 ـ ديوانُ شَمسِ الدِّين التَّبريزيِّ الَّذي كتبَهُ في ذكرياتِ شَيخِهِ الحبيبِ.

3 ـ كتابُ الرُّباعياتِ، وهيَ منظومةٌ مِنَ الشِّعرِ الصُّوفيِّ.

4 ـ كتابٌ فيهِ ما فيهِ، وهيَ مواعظُ وحكمٌ أَملاها إلى مُريديهِ.

5 ـ كتابُ المجالسِ السَّبعةِ ويَتضمَّنُ مُحاضراتٍ عَن القُرآنِ والسُّنَّةِ.

6 ـ الرَّسائِلُ الَّتي كَتبها إلى مُريديهِ ورِجالِ الدَّولةِ يَنصَحهُمْ فيها بِالتزامِ آدابِ الشَّرْعِ وأَحكامِهِ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ كيفَ يَذكرُ التاريخُ جلالَ الدِّين الرُّوميَّ؟

2 ـ ماذا أَعادَ جلالُ الدِّين الرُّوميُّ لِلأُمَّةِ ولأَبنائِها؟

3 ـ ماذا كانَ يُمثِّلُ كتابُ المَثنوي المَعنويِّ لجلالِ الدِّين الرُّوميِّ؟

4 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ جلالِ الدِّين الرُّوميِّ، وما أَصلُ عائلتِهِ؟

5 ـ بِماذا كانَ يُلقَّبُ والدُ جلالِ الدِّين، ولِماذا؟

6 ـ بِماذا حظيَتْ أُسرةُ جلالِ الدِّين، ومَنْ كانَتْ أُمُّهُ؟

7 ـ إِلى ماذا دَعا جلالُ الدِّين الإِنسانيَّةَ؟

8 ـ اذكُرْ مُؤَلَّفَاتِ جَلالِ الدِّين الرُّوميِّ؟

المحتوى

الصَّحَابِيُّ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه الرَّجلُ الصالحُ 5
الإِمَامُ الحسن البصريُّ إمامُ الواعظينَ 17
عمرُ بنِ عبدِ العزيزِ فتى بَني أُمَيَّةَ 29
الإِمَامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل قاهرُ المعتزلةِ 41
الإِمامُ أبو الحسنِ الأشعريُّ ناصرُ السُّنَّةِ 51
حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ ناقدُ الفَلسفةِ 63
الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجَيلانيُّ إمامُ العارِفِينَ رضي الله عنه 74
الشَّيْخُ أحمدُ الرِّفاعيُّ قطبُ الأولياءِ 85
الشَّيخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ سُلطانُ العلماءِ 97
جَلالُ الدِّينِ الروميُّ داعيةُ الحبِّ والإيمانِ 109
المحتوى 121